

زینوبیا ملکه تدمر

أحمد زکی أبو شادی



زینوبیا ملکہ تدمر

أوبرا تاریخیة کبری ذات أربعة فصول

تألیف

أحمد زکی أبو شادی



زينوبيا ملكة تدمر

أحمد زكي أبو شادي

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٥ ٧٤٤ ٠٧٤٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٧.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	تَصْدِير
١١	سيرة الزباء
١٥	مَوْضُوعُ الْقِصَّةِ
١٧	تَمَثُّيلُ الْقِصَّةِ
١٩	نَسَقُ التَّمَثُّيلِ
٢٣	الفصل الأول
٣٣	الفصل الثاني
٤٣	الفصل الثالث
٥٥	الفصل الرابع

تصدير

ألف بعض مشاهير رجال الأدب والفن من الأوروبيين أوبرتين مختلفتين جدًّا الاختلاف في موضوعهما عن (ملكة سبأ) أو (بلقيس) المذكورة في القرآن والإنجيل الشريفين، وهي غير (الزَّباء، ملكة تدمر أو پالميرا أرملة الملك أذنية)، وإن كثر الاشتباه اللفظي بينهما لدى الجمهور ولا سيما في أوروبا، وهذا ما يدعوني إلى هذه المقدمة. وأشهر هاتين الأوبرتين الأوبرا النمساوية المسماة "Die Koningen von Saba" أو (ملكة سبأ The Queen Of Sheba)، وقد وضعها ج. ه. موزنتال "G. H. Mosenthal" ولحنها كارل جولد مارك "Karl Goldmark" وأخرجت في فيينا في العاشر من شهر مارس سنة ١٨٧٥م، وبها خلّد جولدمارك ذكراه، كما أنّ موسيقاها الشرقية النَّفحة البديعة الجذابة كانت من عوامل نجاحها في أوروبا. وأما الأوبرا الأخرى فكانت سابقة لهذه وكانت فرنسية ومُعَنونة بالاسم ذاته مترجمًا "La Reine De Saba"، وقد ألّفها برييه "Barbier" وكاريه "Carré" ولحنها جوتوه الموسيقي الفرنسي الشهير مُلحّن فاوست Faust، ولكنَّ روايته هذه معدودة بين سلسلة مؤلّفاتة الموسيقية التي لم تنل إقبال الجمهور عليها، وقد أُخرجت في سنة ١٨٦٢م.

أما هذه الأوبرا: (الزَّبَاءُ Al-Zabba أو Zenobia) ^١ فمستحدثة، ولا شأن لها بسيرة (ملكة سبأ) ولم يسبق تمثيلها بصورةٍ ما، وهي مختلفةٌ جدًّا الاختلاف عن معظم ما كتب في بحثها سابقًا من الوجهة القصصية (فضلاً عن أنه لا علاقة لها كما قدّمنا بسيرة ملكة سبأ أو بلقيس وإن تشابه الاسمان الأصيلان «سبأ» و«الزَّبَاء» عند الفرنجة)، وهذا الاختلاف قائمٌ موضوعاً وتاريخاً وتحقيقاً ومَرْمَى: فأما الموضوع فينزع إلى الإشادة بأشرف العواطف القومية وعزّة النفس والتضحية الجليلة، وأما التاريخ فهو أحدث ما نعلّمه عنها مع مراعاة مقتضيات الأوبرا، وأما التحقيق فحسبي منه تجنّب ذلك النوع من الخرافة الذي لا يُكسب الأوبرا رونقاً ولا يخدم الحقيقة المحبوبة على أيِّ حال، وأما المَرْمَى فهو التهذيبُ الفنيُّ والخُلقي معاً لا مجرد اللهو والتسلية بسرّد قصّةٍ أو تمثيل روايةٍ لا عبرة منها ولا جَدْوَى، وهذه أمانة قومية في عنقي لم أغفل ولن أغفل تقديرها ما حييت. بهذه النزعة أخذت أنظم هذه الأوبرا تقديرًا لهذه الملكة العربية الجميلة التي كانت تنتسب أيضًا إلى (كليوباترة) ملكة مصر وإن كانت مثال الاستقامة والشرف، بعكس (كليوباترة) التي دعاها (بروبوديتوس) المؤرّخ الرُّوماني «ملكة المدينة النّجسة» مشيرًا إلى (كانوب) مدينة الفجور القديمة برمل الإسكندرية! وقد حكمت (الزَّبَاء) زمنًا على مصر وامتدّ مُلكها امتدادًا عظيمًا وخشي سطوتها الإمبراطور (أورليان) الرُّوماني، ولبثت عزيزة حتى بعد أن تقلّب لها الزمن وبعد أن سقطت دولتها وأسّرت في سنة ٢٧٣م، فقد شاءت الأقدار أن يتزوَّج أولادها من الرومانيين، وأن ينشأ من نسلهم رؤساء للإمبراطورية الرومانية.

وقد راعيتُ في وَضْع هذه الأوبرا — وإن كانت من طائفة الأوبرات الكبرى — أن تكون متوسطة الحجم مجارةً لحالة المسرح المصري الحاضرة؛ لأنّ الآمال التي كانت معقودة على تأليف فرقة مصرية كبرى للأوبرا — والتي من أجلها وضعتُ «أردشير Ardasheer» و«الآلهة The Goddesses» على الأخص — لم تتحقّق بعد، ولعلّي قدّمت بهذه الأوبرا

^١ قال صاحب «أقرب الموارد» نقلًا عن المصادر العربية، وهي مخالفة للتاريخ المحقق، أو على الأقل لا صلة لها بملكة تدمر كما نعلم عنها الآن والتي هي موضوع قصتنا: الزبَاء لقب هند بنت الريان الغساني ملكة الجزيرة، كانت تعد من ملوك الطوائف، وكان يضرب بها المثل في العز والمنعة؛ لأنها كانت متحصنة في مدينتها، فيقال: «هو أعز من الزباء». وذكر في الكلام عن «الأبلق الفرد» إن هذا الحصن والحصن المسمى «مارد» امتنعا على الزباء فقالت فيهما: «تمرّد مارد وعز الأبلق». فذهب قولها مثلاً!

تَصدِير

إلى أنصار الشعر المصريِّ وإلى عُشَّاق الأوبرا الراقية إضافة جديدة مقبولة وقسطاً من
الخدمة الواجبة.

أحمد زكي أبو شادي

الإسكندرية في ٢٨ يوليو سنة ١٩٢٧م

سيرة الزباء

بقلم الأديب القدير الأستاذ محمد سعيد إبراهيم
سكرتير (رابطة الأدب الجديد)

زنوبيا أو الزَّبَاء هي ملكة پلميرا أو تدمر، واسمها في عشيرتها: Septimia Bathzabbai، وهذه المرأة المشهورة بجمالها وإقدامها وذكائها كانت جديرة بأن تكون قرينة أذينة "Odainatti" الذي كان يحمل لقب «رئيس المشرق» "Dux Orientis"، وهي قد اشتركت معه بالفعل في سياسة ملكه أثناء حياته، ولم تخلفه في منصبه فقط بعد وفاته (سنة ٢٦٦-٢٦٧ ميلادياً) بل إنها عقدت العزم على بسط سلطانها على الدولة الرومانية الشرقية، وكان ابنها هبة الله بن أذينة لا يزال حينذاك طفلاً، فتسلمت مقاليد الحكم في يدها. وقد غزت (مصر) سنة ٢٧٠م. وفتحتها بقيادة زَبْدَة "Zabda" بدعوى إعادتها لحكم الإمبراطورية الرومانية، وحكم ابنها (هبة الله) مصر في عهد (قلوديوس) على أنه شريك في حكمها وله لقب الملك، وجعلت (الزَّبَاء) لنفسها لقب الملكة، وقد بسطت نفوذها في آسيا الصغرى إلى مقربة من (بيزنطة) وظلت تدّعي أنها تصنع ذلك في سبيل (رومة). وقد سَكَّ اسم (هبة الله) على العملة التي صُرِبَت في الإسكندرية سنة ٢٧٠م مع اسم (أورليان) الإمبراطور الروماني، ولو أن أورليان قد تفرّد بلقب «العظيم» أو «أوغسطس». وقد وُجِدَت في بابل نقوش عليها اسم (الزَّبَاء) و(أورليان) أو سلفه (قلوديوس) مع ألقاب Augustus و Augusta.

ولما آلت الإمبراطورية إلى (أورليان) في سنة ٢٧٠م، أدرك ما في سياسة (الزَّباء) من الخطر على وحدة الإمبراطورية؛ إذ إن مظاهر الإدارة كانت قد اطرحت من قبل وانكشفت نيات (الزَّباء)، فإن ابنها ضُرب العملة باسمه فقط، وخرج على (رومة). فأرسل (أورليان) حملة إلى (مصر) على رأسها القائد (پروبس Probus) في سنة ٢٧٠م، واستولى عليها. وأعدَّ الإمبراطور في سنة ٢٧١م حملة أخرى على آسيا الصغرى والشام، فدخلت آسيا الصغرى في أواخر سنة ٢٧١م، ودحرت حامياتها التدمرية، ووصلت إلى (أنطاكية) حيث وقفت أمامها (الزَّباء) بجيشها فانهمزت بعد أن لحقتها خسائر فادحة، وتقهرت إلى ناحية (حمص) التي يبدأ عندها الطريق إلى مقر ملكها، وقد أبت أن تستسلم إلى (أورليان) وجمعت جيشها في (حمص) لتخوض المعركة التي تحدد لها مصيرها. ولكنها انهزمت في النهاية ولم يبق أمامها إلا الفرار في الصحراء نحو (تدمر)، فتابعها (أورليان) بالرغم من وعورة الطريق وحاصر مدينتها المنيعه، وفي هذه الساعة العصيبة خذلتها شجاعته ففرت هي وابنها من المدينة لاجئة إلى ملك (الفرس)^١ مستجدة به، إلا أنه قبض عليها على شاطئ الفرات. ولما فقد التدمريون أملهم بهذه النكبة ألْقوا سلاحهم، فأخذ (أورليان) كل ما في البلد من الغنائم وأبقى على أهلها، وأَمَّن (الزَّباء) على حياتها، إلا أنه قتل كل قوادها ومستشاريها ومن بينهم العالم المعروف (لونجينوس Longinus). وقد دخلت (الزَّباء) مدينة (رومة) في موكب الإمبراطور الظافر، وارتضت خذلانها في عزة نفس وشمم، وقضت أيامها الأخيرة في (تيبور Tibur) حيث عاشت هي وابنها عيشة سيدة رومانية، ولم تمض أشهر قلائل حتى ثارت (تدمر) ثانية فعاد إليها (أورليان) على غير انتظار ودمرها ولم يُبقِ على أهلها هذه المرة ...

ومما يُروى عن (الزَّباء) مناقشاتها مع كبير الأساقفة Paul of Samosata في المسائل الدينية. ويرجح أنها كانت تحسن معاملة اليهود في (تدمر)، فقد أشار إلى ذلك (التلمود). ومدينة (تدمر) مقر ملك (الزَّباء) تقع على مسافة ١٥٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي من (دمشق)، وكانت الحروب الفارسية "Parthian" سبباً في ظهورها بين ممتلكات (رومة) واعتلائها ذلك المركز الممتاز فيها. كانت الأسرة الساسانية في ذلك الوقت في ذروة بأسها وعظمتها واتجهت مطامعها إلى الممتلكات الرومانية، فلم يكن للتدمريين بُدٌّ من أن يختاروا بين (الفرس) و(رومة)، فانحازوا إلى الإمبراطورية الرومانية التي كانت قد حبت أشرافَ

^١ لا يعرف بالضبط إن كان هذا الملك شابور هرمز.

(تدمر) ألقابها وعينت بعضاً منهم في مجلس الشيوخ وجعلت واحداً منهم قنصلاً وهو زوج (الزَّباء) المسمى أذينة "Odainath"، وكان ذلك في عهد الإمبراطور فاليريان سنة ٢٥٨م.

وانتهى الصراع بين (رومة) وبلاد (الفرس) باندحار الرومانيين سنة ٢٦٠م، واكتساح الفارسيين آسيا الصغرى وشمال سوريا، وأسر إمبراطورهم (فاليريان Valerian) الذي مات في أسره، فرأى (أذينة) زوج (الزَّباء) بثاقب بصره أن يتوَدَّد بعد ذلك إلى (شابور) ملك الفرس، وأخذ يرسل إليه الهدايا والكتب الكثيرة فكان يرفضها بازدياء، وكان ذلك سبباً في أن يلقي (أذينة) بنفسه في أحضان (رومة) مدافعاً عن قضيتها، وقد كافأه (جالينس Gallienus) بتعيينه في منصب (رئيس المشرق Dux Orientis) كوكيل للإمبراطورية في الشرق في سنة ٢٦٢م. ومن ذلك الوقت أخذ يعمل لاسترداد ما خسرت (رومة) بعد أن ضم إليه فلول الجيش الروماني، فحارب (شابور) وتغلب عليه وأعاد المملكة الشرقية إلى (رومة). وفي أوج انتصاراته قتل هو وابنه الأكبر (هيرودس Herodes) في حمص سنة ٢٦٧م، فأل ملك (تدمر) إلى (الزَّباء) التي كانت تُناصر زوجها في سياسته، وحكمت باسم ابنها الصغير (هبة الله)، وكان لها جيش يبلغ السبعين ألفاً عازمت على فتح مصر به، فتم لها ذلك في سنة ٢٧٠-٢٧١م كما قدمنا، فانتهت مطامحها بأسرها على ما بيناً في سنة ٢٧٣م. أما لغة تدمر فهي اللغة الآرامية، وكان أهلها يعبدون الشمس، ومعبد الشمس لا يزال إلى الآن أكبر الآثار التدمرية.

مَوْضُوعُ الْقِصَّةِ

كانت (الزَّبَاءُ) ملكة (تدمر) آية في الجمال كما كانت آية في الذكاء وَعُلُوَّ الهمة، جريئة طامحة. فبعد أن جلست على كرسي مملكتها بالوصاية على ابنها (هبة الله) إثر وفاة زوجها (أُذينة) وَنَظَّمَتْ مُلْكَهَا، جَرَّدَتْ هذه الملكة العربية المصرية الإغريقية الأصل حملةً عظيمةً على مصر برئاسة وليِّ عهدها (هبة الله) وبقيادة بيلينيوس القائد الأعظم لجيشها وهو الذي كان يحارب (تحت إمرة زوجها أُذينة) الملك (شابور) الفارسي لمصلحة (رومة) فتغلب عليه، وَإِنْ قُتِلَ (أُذينة) وابنه الأكبر في تلك الحرب التي كان من عاقبتها إعادة المملكة الشرقية الرومانية والتحالف بين (تدمر) وبين (رومة).

جَرَّدَتْ هذه الملكة الطامحة — التي تبدأ بها قِصَّتُنَا — حملتها على (مصر) اعتمادًا على مهارة قائدها الأعظم (بيلينيوس Pilinius) السالف الذكر بمعاونة قائدها زَبْدَةُ "Zabda"، وكان الأوَّل مولدًا من أبٍ روماني وأم تدمرية، ففتح (مصر) بسهولة نظرًا لمودة الأهالي، وكان يعتقد أنه يعزِّز سلطة (رومة) كما يخدم (تدمر) بهذه الحملة، وقد أفهمته الملكة (الزَّبَاءُ) ذلك مخادعة، بينما هي ترمي إلى نشر نفوذها، ولذلك تركت ابنها في (مصر) واستدعت هذا القائد إثر الفتح. وكان يطمح في التزوُّج منها ليكون ملك (تدمر) المتَّوَجَّ، كما كان يحبُّها حبًّا مصلحيًّا ويغار من عنايتها بصديقها الناصح الأمين (لونجينوس Longinus). وكانت الملكة تُعْنَى بمباحثة كبير الكهنة (ثاديوس Theddeus) في المسائل العلمية والأدبية؛ لأنها كانت أديبةً تجيد من اللُّغات العربية والآرامية والمصرية، وألَّفت كتابًا عن تاريخ الشرق، وكان كبير الكهنة هذا يغار بدوره من عنايتها بالفيلسوف (لونجينوس)، وكان لكبير الكهنة (ثاديوس) بنت تُدعى (مِرْنَدَا Miranda) وكانت تعشق القائد الأعظم (بيلينيوس) ويشجعها على ذلك والدها بإغضائه أيضًا وتودُّده للقائد هذا،

بينما (پيلنيوس) لم يكن يعرف للحب الحقيقي معنى، ولكنه عرف كيف يستغل حبَّ (مرندا) له وكراهية والدها (للوونجينوس) الفيلسوف صديق الملكة الحميم. فلمَّا اتضح فيما بعد للإمبراطور الروماني (أورليان) خطر (الزَّباء) على سلطته وشدة مطامحها — لا سيما بعد أن ضرب ابنها (هبةُ الله) العملة المصرية باسمها فقط — بعث بحملة إلى (مصر) وتمكن من دحر جيشها هناك، ثم أردف هذه الحملة بأخرى على آسيا الصغرى والشام بقيادة القائد (مارسيوس Marcus) فهزمت جيوش (الزَّباء) لا سيما في (أنطاكية) و(حمص) واضطرت (الزَّباء) إلى التحصُّن في (تدمر). ويرجع أكبر الفضل في انتصار الرومانيين عليها إلى تجسُّس (مرندا) وخذلان قائدها (پيلنيوس) إيَّاهَا، بعد أن ساومها في ساعة الشدة على الزواج منه فرفضت بشمم، فدعاها إباؤه إلى الانضمام الكلِّي إلى القائد الروماني (مارسيوس Marcus) وتأمّر الاثنان على التنكيل بجيشها وسحق ملكها. ولولا انضمام (پيلنيوس) إلى الرومانيين ما استطاعوا اجتياز القفار والاستحكامات المنيعَة بعد موقعة (حمص) والتمكّن من محاصرة (تدمر). ولولا ثقة الملكة (بمرندا) الطيبة القلب التي خدعها (پيلنيوس) ولولا حبُّ الأخيرة لهذا القائد الخائن المخادع الذي استغلَّ مركزه لنفعه الشخصي لَمَّا آل الأمر إلى محاولة (الزَّباء) وابنها الهرب إلى ملك الفرس للالتجاء إليه دون نجاح في هذه المحاولة، فتَوَخَّذُ عندها (الزَّباء) أسيرة إلى (رومة) وعليها سلاسل الذهب والجواهر، ماشية أمام عربة الإمبراطور (أورليان) في هوانٍ وضعة فيكاد يُغمى عليها، ولكنها تتمالك نفسها وتخاطب (أورليان) في تأثُّر قائلة له: إنَّه إذا كان عاملها هكذا جزاءً لها فإنه لم ينصف، لأنه لولا قائدها (پيلنيوس) وأطماعه ورغبته في الزواج منها وتشجيعه الانفصال من (رومة) لما وقع ما يغضب الإمبراطور، وإذا كان قائدها هذا قد ناصره أخيرًا فليس ذلك حبًّا في (رومة) وإنما بدافع الانتقام الشخصي منها، ومثله لن يكون وفيًّا للإمبراطور بل هو أساس المصائب ومدير كل خيانة. فيغضب عليه الإمبراطور بعد أن يصفح عنها ويعدها بحياة الكرامة والشرف مع أولادها في مدينة (تيبور). فيقبُض على پيلنيوس ويحكم عليه بالإعدام أمام (الزَّباء). وتغدو معززة لدى من كان أسرها مسترجعة منزلتها الملكية، وقد توجَّها (أورليان) بإكليل من الغار ووصفها بأنَّها حقًّا في الأسر أسرة، وفي القهر فاتحة، وفي الذلُّ مليكة! ومن كان هذا معدنها فليس لها إلَّا أن يجلَّها الإمبراطور وأن تعيش عزيزة بقيّة عمرها في ضيافة (رومة) الجديرة بأن تُعدَّ وطنًا ثانيًا لها.

تَمَثِيلُ الْقِصَّةِ

أشخاص القصة

الرَّبَّاء: ملكة تدمر.

أورليان: إمبراطور الرومان.

لونجينوس: الفيلسوف الإسكندري والناصح الأمين للملكة.

ثاديوس: كبير الكهنة لملكة تدمر.

لورنتياس: الوزير الأعظم لملكة تدمر.

بيلنيوس: القائد الأعظم لجيش مملكة تدمر.

مِرْنَدَا: ابنة ثاديوس كبير الكهنة.

هبة الله: وليُّ عهد الرِّبَّاء وابنها. (أشير إليه ولم يظهر في التمثيل).

مارسيوس: قائد الجيش الروماني. (أشير إليه ولم يظهر في التمثيل).

حاشية - جند - جوارى - راقصات - جمهور.

نَسَقُ التَّمْثِيلِ

الفصل الأول

يمثّل هذا الفصل في مَشْهَدِهِ الشُّرْفَةِ الكبرى للقصر الملكي بمدينة (تدمر) وقد جلست (الزَّبَاء) على مسمعٍ مِنْ مرور بعض الجند العائدين من (مصر)، بعد أن أَتَمَّت فَتَحَهَا بدون مقاومةٍ بجيشها العظيم الذي بلغ سبعين ألفاً، وحولها معظم وزرائها وحاشيتها. ويبدأ الفصل بنشيد الجند الفاتحين، ثم يحدثها مهنئاً صديقها الفيلسوف الإسكندري (لونجينوس) فيذكرها بأن الشعب المصريّ ذاته رَحَّب بجيشها نظراً للمودة التي بين المصريين والتدمريين، وهي حبيبةٌ إليهم؛ لأنها قريبة (كليوبطرة). ثم يجيء الوزير الأعظم (لورنتياس) مبلّغاً إياها إجلال الجيش ومحبته وفرحه بالنصر ويستأذن في مثول القائد الأعظم (پيلنيوس) بين يديها، ويجيء هذا فتضع الملكة إكلييل الغار المنمّق بالغسول على رأسه، ثم تدعوه لأخذ مجلس الشرف بجانب وزيرها الأعظم، ويتبادلون التهاني والتقدير ثم تطلب الملكة من (مرندأ) — ابنة كبير الكهنة (ثاديوس) والتي كانت معروفة بأنها تشاطر (پيلنيوس) الحبّ — بأن تقدّم إلى القائد الأعظم (پيلنيوس) رمزاً آخر للفخر والمجد هديتها الملكية: وهي سيفٌ مُرْصَعٌ بالجواهر، فتقدّمه (مرندأ) إلى القائد الأعظم الذي يركع احتراماً لتناوله، ثم يقبله ويفيض بنشيد الشكر إلى الملكة، وتحيّيها الحاشية جميعها أجمل تحية في فرحٍ عظيم، ثم يحين دورُ حامل العلم فتكرّمه الملكة وجميع مَنْ معها. وهكذا يمثّل هذا الفصل الأول استقبلاً فخماً، وعَرْضاً للفتح، وتقديراً للجيش المنتصر، وترديدًا لأمني (تدمر).

الفصل الثاني

يمثل هذا الفصل بمنظره الفخم «مَعْبَد الشمس» بمدينة (تدمر) وقد مرَّ عَهْدٌ طويلٌ على وقوع حوادث الفصل الأول، وأخذ الرومانيون يحاربون التدمريين بعد أن خافوا من امتداد نفوذهم وأوشكوا أن يشتبكوا معهم في معركةٍ خطيرةٍ حول (أنطاكية). ويبدأ الفصلُ بصلاة كبرى في المعبد استنجادًا على الأعداء، وقد حضرت الملكة وكبار حاشيتها وسراة المدينة وذوو الحثيات المختلفة فيها نساءً ورجالاً. وبعد انتهاء الصلاة تعلن الملكة رغبتها في أن تكون بخلة مع رجال عرشها للمشورة، فيخرج الحاضرون ما عدا كبير الكهنة والوزير الأعظم والقائد الأعظم والفيلسوف لونجينوس، فتسأل الملكة قائدها الأعظم عما اعتزم أن يفعله إزاء هُجُوم الرومانيين الخطر، فيُجيبها مبالغاً في تقدير الخطر مشيراً إلى أسر وليّ العهد، ولكنه يعدها ببذل كلِّ قواه لصيانة المملكة ما دامت تمنحه رضاءها، ثم يلمح إلى طمعه في أن يشاركها العرشَ وأن يغدو زوجها وملك (تدمر) ... ولكنها تتجاهل هذا التلميح وتدعوه إلى الالتحاق بالجيش فوراً واستئناف الإشراف على هذا القتال، فيخرج مودّعاً. ويخطئُ الفيلسوف (لونجينوس) في تصوُّره أنَّ القائد الأعظم (بيلينيوس) مخلصٌ أمينٌ، فيقترح أن يُعطى يد (مرندا) بعد عودته ظافراً، حاسباً أنه يسرُّ والدها كبير الكهنة (ثاديوس) بهذا الرأي ... ولكن ثاديوس يقاطعه غاضباً ويرفض هذه المشورة، ثم يفضي بخشيته من (بيلينيوس) وأطماعه، ولكن الملكة في شجاعةٍ وشَمَمٍ تعلن أنَّ عرشها لشعبها، وأن نفسها ملك نفسها، ويخفف الوزير الأعظم من روعهم، ويتعاهد الجميع على نصره الوطن.

الفصل الثالث

يمثل المنظر الأول لهذا الفصل «حصن تدمر» قبيلُ الغروب في مشهدٍ رائعٍ والشمس باعثة بأشعتها الأرجوانية بين صفوف النخيل على الرمال الذهبية والحجارة التاريخية العتيقة، ويبدو رجال الحامية في مواضع متفرقة ومعهم سيوفهم وسهامهم ودروعهم، وتبدو المنجنيقات في مواضع مختلفة من الحصن، وقد زارته (الزَّبَاء) على موعد من القائد الأعظم الذي جاء من ميدان القتال بحجة تقوية الدفاع، ولكنه جاء في الواقع ليساوم (الزَّبَاء) على الزواج منه حتى يصبح ملك (تدمر) وذلك ثمناً لإنقاذه المملكة من خطر الرومانيين الزاحفين على (تدمر) بعد أن هزموا التدمريين أخيراً في موقعة (حمص) وأخذوا

يجتازون القفار والاستحكامات إلى العاصمة. فتعنفُ الملكة (بيلنيوس) وتذكره بفضل رعايتها وتعتبر مساومته إيّاها في ساعة الشدة إهانة لها بل خيانة لعرشها، فيحاول تبرير موقفه والدفاع عن نفسه وذكر مآثره على المملكة، ولكن هذا الدفاع يزيدُها مقتًا له وغضبًا عليه، فتطلب منه أن يتركها على أي حال وتُعلنه بأنه إذا خانها فستقود بنفسها الجيش، ولن تلقي السلاح حتى تحرر وطنها من غارة المغيرين ... فيتركها قائدها محتجًا. ثم تدعو الحامية وتخطبهم بحماسةٍ وطنية، فيقسمون بالإخلاص لها والتفاني في الدفاع عن (تدمر)!

ويمثل المنظر الثاني من هذا الفصل مشهدًا ريفيًا وشاطئ نهر (الفرات) في خلف المسرح وأشعة القمر مرسلة ما بين النخيل وتألّق النجوم واضحًا في السماء، ويقع هذا المنظر بعد المنظر الأول بأسابيع قليلة، وقد تمكّن الرومانيون بقيادة قائدهم (مارسيوس) وبفضل خيانة (بيلنيوس) من اجتياز القفار والاستحكامات المنيعّة — بعد موقعة (حمص) — ومن محاصرة (تدمر)، ولكن بعد أن هرب وليّ العهد (هبة الله) من الأسر والتحق بجيش العاصمة. وفي هذا المنظر تُمثل محاولة (الزّباء) الهرب مع وليّ عهدها، حيث آنست من الجيش الروماني المحاصر غفلةً في إحدى الليالي فهربت ومعها طائفة من خاصتها على خيولهم ومعهم بعض الجند لتدبير الفرار لها ولولي العهد، قاصدة ملك الفرس للالتجاء إليه والاستنجاد به على أعدائها بعد أن كادت المدينة تسقط في أيدي الرومانيين. وفي أول المنظر تبدو الملكة تحت ظلال النخيل في جانب من المسرح ومعها من حاشيتها كبير الكهنة (ثاديوس) والوزير الأعظم (لورنتياس) والفيلسوف (لونجينوس) و(مرندا) ابنة (ثاديوس) وقد آثروا جميعًا صحبتها وتوديعها رغم مخاطر الطريق ضمانًا لسلامتها. فيتبادلون جميعًا العزاء والتشجيع والتأميل والتأسي والسخط على (بيلنيوس) الخائن، ثم التعاهد على التفاني في الدفاع حتى تصل نجدة الفرس المرجوة. وكان وليّ العهد ومن معه من الجند قد توجهوا إلى النهر لإعداد القاربين اللازمين للرحلة، ولكنه لا يعود ولا يبعث برسول إليها، ويطول انتظارها فتقلق، وبينما الوزير الأعظم يهدئ من روعها وهي تودّع من معها إذ تفاجئهم عساكرُ الرومان فيؤسّرون، وتلمح (الزّباء) قائدها الخائن (بيلنيوس) على رأس أسريها فتغضب مشمّزة، وترمي نعلها في وجهه صائحة: «أهذا أنت يا خائن؟!» ... فتسُد الستار العامة فورًا.

الفصل الرابع

یمثل هذا الفصل مَشْهَدَ جانبٍ من ساحة القصر الکبرى بمدينة (رومة) شائقةً بعمُدها وبنایاتها الرائعة، وقد ازدحم أعيان الشعب في المكان المَعْدَّ لاستقبال الإمبراطور (أورليان) في عربته ماشيةً أمامها الملكة الأسيرة.

يتبادل الشعبُ والأشرافُ والجندُ هتافَ الفرح، ويبدو ركبُ الإمبراطور وفي مقدّمته طائفة من الجند ثم القوّاد وعلى رؤوسهم الغار وبينهم قائد تدمر الخائن (بيلينوس)، ثم الملكة (الزَّباء) أسيرة، وعليها سلاسل الذهب والجواهر ماشيةً أمام عربة الإمبراطور وبجوارها حارسان يسندانها حيث يكادُ يغمى عليها من التأثّر بالهوان، ثم عربة الإمبراطور يجرُّها الجند ويحيطون بها، وتقف العربة بعد الظهور على المسرح. يبدي الإمبراطور إشارة التحية فيحييه الجميع بإجلال، ويخاطب أشراف رومة مُشيديًا بفضل الجيش، ويتلقى باقات الزهر من الشعب تقدّمها له نخبة حِسان الرُّمانيات. ويخاطب الإمبراطور (الزَّباء) مُعيرًا مُذكّرًا بسفاهتها التي جَنَّتْ عليها، فتردُّ عليه (الزَّباء) بِشَمِّ مخطئةٍ رأيهِ مُظْهِرةً أَنَّ أصلَ الحروبِ والمتاعبِ قائدها الخائن (بيلينوس)، الذي كان طامعًا في الزواج منها، فلمّا رفضته عمل على الانتقام منها، وما انضمَّ إلى (رومة) محبةً فيها وإنما خيانة (لتدمر)، وهكذا تستثير الإمبراطور فيغضب على (بيلينوس) ويعتبره أصلَ العداء بين (رومة) و(تدمر) والمسئول عن ضياع الأرواح وخراب ما خُرِبَ من بلاد وما أُلِفَ من زرع، فيحكم عليه بالموت ويصفح عن (الزَّباء) وينزلها ثانيًا منزلة المودة والإكرام والسيادة هي وأولادها في ضيافة مُلكِهِ. وهكذا تنتصر (الزَّباء) في أقسى ساعات الهزيمة وتبرُّ بقسمها — قسم الانتقام والتمسك بالشرف والكرامة — إلى أبناء وطنها.

الفصل الأول

(مشهد الشرفة الكبرى للقصر الملكي في مدينة تدمر وقد جلست الزباء على مسمع من مرور بعض الجند العائدين من مصر، بعد أن أنمت فتحها بدون مقاومة بجيشها العظيم الذي بلغ سبعين ألفاً، وحولها معظم وزرائها وحاشيتها. ويبدأ الفصل بنشيد الجند الفاتحين، ويراعى تمثيل العمدة الضخمة الكثيرة واتساع الشرفة، بينما الجند لا يظهرون، وإن سُمع صوت مشيدهم ونشيدهم في أقصى خلف المسرح.)

الجند (ينشدون في مشيهم العسكري):

أَحْكُمِي! أَحْكُمِي! وَالْبَيْثِي فَاتِحَهُ
وَأَغْنِمِي وَأَسْلِمِي لِلْمَنَى الصَادِحَهُ
لِلْعُلَى وَالْحَضَارَهُ
لِلْهُدَى يَا مَنَارَهُ!
وَأَنْهَضِي بِالشُّعُوبِ يَا مَلَأَ الدُّوْلَ
فَالشَّقَاءَ يَذُوبُ إِنَّ بِذَلِكَ الْأَمَلَ!
لِلجُنُودِ الْبَوَاسِلَ
لِلْكِمَاةِ الْأُمَاطِلَ!
وَقَدْ ظَفَرْنَا (بِمَصْرٍ) مِثْلَمَا قَدْ أَرَدْتَ
فَخَرْنَا أَيُّ فَخْرٍ طَالَمَا قَدْ وَدَدْتَ
فَانظُرِي بِاسْمِهِ
وَالْبَيْثِي حَاكِمَهُ!

الزبَاء (ملكة تدمر):

يا وزيرِي الأجلِّ بلُغِ جُنُودِي كُلُّ شَكْرِي مِنْ صَفْوِ قَلْبٍ وَدُودِ
إِنَّ فَخْرِي بِهِمْ عَظِيمٌ، وَلَكِنْ هُوَ فِي الْحَقِّ بَعْضُ فَخْرِ الْجُدُودِ
وَأَدْعُ لِي الْقَائِدَ الْجَلِيلَ لِيَحْظَى بِمَثُولِ الْمُبْجَلِ الْمُحْسُودِ

لورنتياس (الوزير الأعظم):

إِنَّ هَذَا لِيَوْمٌ عِيدٍ وَأُنْسِ فَأَقْبَلِي التَّهْنَاتِ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ

(ينحني احترامًا ويخرج.)

حاشية الملكة:

يَا لَنَصْرِ حُزَّتِهِ فِي جَلَالٍ فِي وَفَاءٍ
فِي كَرَامَةٍ!
إِنَّ شَعْبًا سُسَّتِهِ لَنْ يُذَالَ أَوْ يُسَاءَ
فِي زَعَامَةٍ!
طالما أُرْشِدْتِهِ الْمُحَالُ لَلْعَلَاءِ
لِلْإِمَامَةِ!

لونجينوس (الفيلسوف الإسكندري):

مَا فَتَحْتَ (مِصْرَ) فَتَحًا كَعَدُوٍّ أَوْ خَصِيمٍ
بَلْ جَعَلْتَ الْفَتْحَ مَنَحًا مِنْ نَدَى شَعْبٍ كَرِيمٍ
لِمُنَى شَعْبٍ كَرِيمٍ
فِيكَ ذِكْرِي (كَيْلِبَطْرَه) فِي جَلَالٍ وَقَرَابَه
فَأَمْنَحِي (لِلنِيلِ) قَطْرَه مِنْ رَضَى تُفْنِي اِكْتِتَابَه
وَأَقْبَلِي الْحُبَّ الصَّمِيمَ

الملكة:

خَيْرُ شُكْرٍ يَا صَدِيقِي نُصْحُكَ الْوَافِي ثَمِينٌ
أَهْلُ (مَضْرَ) مِثْلُ قَوْمِي وَلَهُمْ حُبِّي الْأَمِينُ
ولهم شكري العظيم!

(يدخل الوزير الأعظم ويحيي الملكة.)

الوزير الأعظم:

الْجَيْشُ فِي فَرْحٍ عَظِيمٍ سَمِ بَابْتِهَاجِكِ يَا مَلِيكَةً
وَالْقَائِدُ الْبَطْلُ الْمُجِيدُ زُكُ الْخُضُوعَ بِلَا شَرِيكَةٍ
يُهْدِي إِلَيْكَ تَجَلَّةً حَتَّى يُشْرِفَ بِالْمُنْتُولِ
وَيُنَالُ إِكْلِيلًا مِنْ أَلِ غَارِ الْمُنَمَّقِ بِالْغَسُولِ^١
وَيُنَالُ نَظْرَتِكَ السَّعِيدِ دَدَةً وَالْكَفِيلَةَ بِالسَّعَادَةِ
فَيُنَالُ مِنْ شَرَفِ الرِّعَا يَهُ فَوْقَ إِجْلَالِ الْقِيَادَةِ

(يقعد في مجلسه بعد إبداء الاحترام للملكة.)

الملكة:

مَرْحَبًا! وَمَرْحَبًا! وَلِيَزِدْنَا طَرَبًا!
قَائِدُ بَحْذَقِهِ نَالُ فَتْحًا عَجَبًا
قَدْ حَبَانَا لِلْعُلَى سَبَبًا وَسَبَبًا

^١ الغسول: زهر بنفسجي وقرمزي جميل لعشب كثير الانتشار. والغار: الشجر المعروف، واحدته غارة.

الحاشية (مرددة):

قَدْ حَبَانَا لِلْعُلَى سَبَبًا وَسَبَبًا

(يدخل القائد الأعظم لجيش الملكة فيقبل طيلسانها في خضوع ثم ينشد..)

پیلنیوس (القائد الأعظم):

لِكَ الْجَلَالُ وَفَضْلُ الْفَتْحِ مَوْلَاتِي!

(تضع الملكة إكليل الغار المنمق بالغسول على رأسه ثم تدعوه لأخذ مجلس الشرف بجانب وزيرها الأعظم.)

الملكة:

خُذْ مَجْلَسَ الشَّرَفِ الْعَلِيِّ فَقَدْ سَمَوْتَ بِمَجْدٍ (تَدْمُرُ)

(يجلس القائد شاكرًا.)

القائد الأعظم:

عَفْوًا! فَوَحْيُكَ كَانَ يَهْـ
وَمِنَ التَّفَانِي فِي الْوَلَا
و(لمصر) فَضْلُ الْعَطْفِ عَطُـ
فَاسْتَقْبَلْتَنَا فِي وَفَا
سَدِينَا الطَّرِيقَ إِلَى الْفَخَارِ
ء إِلَيْكَ أَلْهَمْتُ انتصاري
فِ الْأَهْلِ قَبْلَ شُعُورِ جَارِ
ء وافترارٍ وافتخارٍ

الحاشية:

أَشْرِقِي يَا طُلْعَةُ الشَّمْسِ الْبَهِيَّةِ إِنَّمَا تُحْبِبِينَ آمَالَ الْبَرِيَّةِ
كُلُّ مَا أَلْهَمْتَ مِنْ نَصْرٍ عَظِيمٍ
كُلُّ مَا أَنْعَشْتَ مِنْ حُبٍّ مُقِيمٍ

إِنَّمَا الدُّنْيَا مُحَيَّاكَ الْوَسِيمُ
فَاهْنُئِي بِالنَّصْرِ يَا نُورَ الرَّعِيَّةِ واقْبَلِي مِنَّا التَّحِيَّاتِ الْعَلِيَّةِ!

الملكة:

يا قَائِدَ الْجَيْشِ الرَّفِيعِ السَّنَا قَدْ أَنْصَفَ الْجَيْشُ فَقَرَّ السَّلَامُ
هَنَّاؤُكَ الْآنَ وَلَكِنَّمَا هُنْتُتَ مِنْ قَبْلِي بِلَمْعِ الْحُسَامِ
مَنْ حَازَ مَا حُزْتُ فَقَدْ فَاتَهُ الْهِمَّةُ الْكُبْرَى فَكُنْتَ الْهَمَامُ
يا بَانِي التَّارِيخِ فِي مُلْكِنَا قَدْ نَلْتَ فِي الْأَمَّةِ أَسْمَى مَقَامُ!

القائد الأعظم:

عَفْوًا فَحُكْمُكَ فِي النُّهَى يَبْقَى كَمَا يَبْقَى الْبَهَا
مَا كُنْتُ إِلَّا عَبْدُكَ الْـ وَاقِي وَلَوْ بَلَغَ السُّهَى
وقد ابْتَدَأَ بِأَبِيكَ فَخْذُ رِي فَاتَحَا وَبِكَ انْتَهَى
فَمُرِّي فَحَسْبِي خِدْمَةُ لِكَ دَائِمًا أَحْيَا لَهَا
فَاعِيشْ مُحْسُودًا لَهَا وَأَدُومْ مَفْتُونًا بِهَا!

الملكة:

قَدِّمِي السَّيْفَ حَالِيًا يَا (مَرْنَدَا) رَمَزَ مَجْدٍ لِمَنْ حَبَا الْمُلُكُ مَجْدًا
إِنْ تَزَنَّهُ الْحُلِيَّ فَالْفَخْرُ مِنْ شَعْدُ سَبِي وَمَنْنِي بِهِ سَنِيًّا تَبَدَّى
وَجَمَالُ لَدِيكَ يُكْسِبُهُ حُسْنُ نَا جَدِيدًا، وَيُكْسِبُ الْحَسَنَ حَمْدًا
وَيَدَاكَ اللَّتَانِ أَوْلَى بِتَقْبِيهِ لِ تَبَثَّنَ قُبْلَةَ الشُّكْرِ رَدًّا
هَكَذَا تُشْكِرُ الشَّجَاعَةَ وَالْإِخْ لَاصُ لِلْمَوْطِنِ الْعَزِيزِ الْمُفْدَى!

(تنهض مرندا حاملة السيف المرصع بالجواهر بكلتا يديها لتقدمه إلى القائد الأعظم الذي يركع احترامًا لتناوله.)

مِرْنَدَا (ابنة كبير الكهنة):

رَبَّةَ التَّاجِ إِنَّ أَمْرَكَ تَشْهَدُ
وَأَنَا الْآنَ فِي سُرُورٍ وَفَخْرٍ
فَتَقَبَّلْ يَا سَيِّدَ الْجُنْدِ إِعْجَابًا
وَحُذِّ السَّيْفِ ظَافِرًا شَارَةَ الذِّكْرِ
رِيفِي وَكُلِّي مَا عَشْتُ طَوْعًا لِأَمْرِكَ
أَهْبُ السَّيْفَ مُغْلِنًا صِدْقَ فَخْرِكَ
بَا مِنْ الْعَرْشِ وَالرَّعَايَا بِقَدْرِكَ
رَى لِنَصْرٍ، وَلِيَبْقَ مَرَاةً نَصْرِكَ!

(يتناول القائد الأعظم السيف ويقبله، ثم ينشد هذا الشعر التالي قبل الجلوس وتعود مرندا إلى مجلسها.)

القائد الأعظم:

بُورِكْتِ يَا مَوْلَاتِي وَبَقِيَتْ نُورَ حَيَاتِي
ضَاعَفَتْ نَصْرِي هَكَذَا بِرِضَاكِ يَا مَوْلَاتِي!

(تدخل ثلاث جوار حسان في ثياب راقصات من كل من جانبي المرقص ويرقصن نحو خمس دقائق على نغم النشيد الآتي الذي تنشده الحاشية.)

الحاشية:

أُسْعِدْتَنَا فِدْعِي قَلْبِي
وَزِدْتَنَا بَعْدَ الْحَرْبِ
فَلَكَ الْحَمْدُ
الْمُلْكُ بِالرَّأْيِ السَّامِي
فَتَحْتِ مِنْ قَبْلِ حُسَامٍ
كَوْنَتْ شَعْبًا يَهُوَاكِ
يَزْعَاكِ حُبُّ رَعَايَاكِ
يَا زِينَةَ الْعَرْشِ الرَّاهِي
ذِكْرَاكِ رَاحَ الْأَفْوَاحِ
عِيشِي لَنَا دَهْرًا حُرًّا
خَالِي الذَّنْبِ يُبْدِي نَجْوَاهُ
بَأْسًا يَسْبِي مَنْ لَا يَخْشَاهُ
وَلَكَ الْحُبُّ!
ثُمَّ الْأَجْنَازُ
بِحَجَى وَقَادُ
لَنْ يَنْسَاكِ
لَوْ أَرْضَاكِ
يَا شَبْهَ مَلَكَ
وَمُنَى الْأَفْلَاكِ
عَيْشَ الْإِحْسَانِ

وَاسْتَقْبَلِي مِنَّا شُكْرًا	مِلءَ الْوَجْدَانِ
وَسَامَحِي تَكَرَّارَ هَوَى	يَحِلُّو وَيَطِيبُ
مِنْ كُلِّ قَلْبٍ عَرَفُ مَنْى	وَوَفَاءَ حَبِيبُ
أَسْعَدْتَنَا فَدَّعِي قَلْبِي	خَالِي الذَّنْبِ يَبْدِي نَجْوَاهُ
وَزِدْتَنَا بَعْدَ الْحَرْبِ	بَأْسًا يَسْبِي مَنْ لَا يَخْشَاهُ
فَلَكَ الْحَمْدُ	وَلِكَ الْحُبُّ!

(تخرج الراقصات من المسرح بانتظام كما دخلن وهن يرقصن الرقصة الأخيرة.)

ثادىوس (رئيس الكهنة مخاطبًا الملكة):

أَسْتَمِدُّ الثَّنَاءَ لِلْعَرْشِ مِنْكَ	حَلِيَّةُ التَّاجِ وَحْيِي نَفْسِكَ تَلِكِ
أَنْتِ إِلْهَامُ خَاطِرِي وَعِبَادَا	تِي إِلَى (الشمس) ثُمَّ نَجَوَايَ عَنْكَ
سَأُقِيمُ الصَّلَاةَ فِي الْمَعْبَدِ الضَّا	حِي، فَعِيشِي مَنَارَ دَيْنٍ وَمُلْكِ
أَنْتِ أَهْلُ الشُّكْرِ فِي مَنْزِلِ الْـ	دَّيْنِ، فَقَدْ دُمْتُ مِثْلُهُ فَوْقَ شَكِّ!

لونجينوس (الفيلسوف الإسكندري):

بعد هذا الفتحِ مِنْ حَقِّ الْعَلَمِ أَنْ يُحْيَا مِنْكَ محسودَ الْجَلَالِ
فانظري للجيشِ يا شمسَ الْعُيُونِ
نظرةً تَجْزِيهِ كَالْكَنْزِ الْمَصُونِ
نظرةً تُعْطِيهِ مَا تُعْطِي الْفُنُونِ
مِنْ خُلُودٍ بعدَ أَنْ لَاقَى الْمَنُونِ
بتفانٍ في قِتَالٍ وَشَمَمٍ أو تفانٍ في اكتسابٍ للرجالِ
فاغْتَدَّتْ (مَضْرُ) لَنَا كَالْجَوْهَرَةِ
والتقينا والأمانى النِّيْرَةَ
وَاعْتَلَيْنَا للمعالي لا الشَّرَةَ
وَعَدُونَا أُمَّةً مُنْتَصِرَةً

تَنْظُرُ الدُّنْيَا إِلَيْهَا وَالْأُمَمُ نَظْرَةَ الْإِعْجَابِ حَقًّا بِالْفِعَالِ!

الملكة:

فليجئ إذن	حاملُ العَلَمِ
إنَّ رَمَزَهُ	سَيِّدُ الْقَسَمِ
وَحْيُهُ لَنَا	طالما ابْتَسَمَ
وهو دائماً	بالْعُلَى اتَّسَمَ

الحاشية (مرددة):

فليجئ إذن حاملُ العَلَمِ

(يدخل حامل علم الدولة وقد رفعه قريباً من الملكة، فتقف الملكة إجلالاً له
وكذلك جميع الجالسين من حاشيتها.)

حامل العلم (راكعاً على ركبته اليمنى وماسكاً العلم):

وديعتي الشَّرَفُ الْمُسْتَوْدِعُ الْعَلَمَا	ذِكْرًا يَدُومُ، وتشجيعاً لِمَنْ عِلَمَا
وديعتي مَثَلْتُ عَرْشًا وَرَبَّتُهُ	وَأُمَّةٌ أَدْهَشَتْ فِي فَتْحِهَا الْأُمَمَا
فاستقبله وَفِيًّا عَادَ مُبْتَسِمًا	بِالنَّصْرِ حُرًّا كَمَا قَدْ رَاحَ مُبْتَسِمَا

الملكة:

هكذا هكذا تُصَانُ الْأَمَانَةُ يخدمُ الجُنْدُ هكذا أوطَانَهُ!

القائد الأعظم:

باسمِ جَيْشِ الْمَلِكَةِ الشُّكْرُ أَهْدِي	هِ قَرِينَا لِمُسْتَحَبِّ الْخُضُوعِ
كُلُّنَا فِي الْوَعَى يَمَثُلُ أَعْلَا	مَا تَنَاجِيكَ دَائِمًا فِي خُشُوعِ!

كُلُّنَا كَانَ حَامِلَ الشَّرَفِ الْعَا لِي بِذِكْرِكَ وَالْمُنَى وَالرُّبُوعِ
فَامْلِكِي فَخَرَ عَسْكَرٍ (تَدْمَرِي) مُسْتَعِزٌّ بِحَبكِ الْمَطْبُوعِ

(تقبّل الملكة العلم ثم تجلس فيجلس من قام معها من الحاشية، بينما يرتل تبعها النشيد الآتي وتدخل الراقصات على النظام السابق من جانبي المسرح متابعات النشيد يرقصن نحو خمس دقائق.)

الحاشية:

الْحُسْنُ فِي الدُّنْيَا سُلْطَانُ وَالْعَقْلُ سُلْطَانُ ثَانٍ
وَأَنْتِ يَا زَيْنَ التَّيْجَانِ لَدَيْكَ عُزُّ الْإِثْنَانِ
عَقْلٌ وَحُسْنُ رُوحَانِي!
النَّاسُ قَدْ وَلِدُوا أَحْرَارَ فِيمَ الْخُضُوعِ لِحُكْمِ مُلُوكِ
أَمَّا احْتِكَامُكَ فَهُوَ فَخَارُ فَخَرُ الْعَدَالَةِ دُونَ شُكُوكِ
نُورٌ وَإِصْلَاحُ بَانٍ!
فَاسْتَقْبَلِي مِنَّا حُبًّا وَالْحُبُّ دُرَّةُ كُلِّ حَبِيبٍ
فِي الْجِسْمِ يُودِعُهَا قَلْبًا فِي النَّشْرِ مِثْلَ الْعَرَفِ تَطِيبِ
رُوحًا وَلَذَّةَ وَجْدَانٍ!
عِيشِي وَ(تَدْمُرِي) فِي تَكْرِيمِ عَيْشِ الْعُلَى وَالْحُرِّيَّةِ
وَأُحْيِي مَفَاخِرَ كُلِّ عَظِيمِ وَابْنِي صُرُوحَ الْمَدِينَةِ
وَابْنِي رَجَاءَ الْإِنْسَانِ!
وَسَامِحِي طَرَبًا جَمًّا فِي حَضْرَةِ الْحُسْنِ الْفَتَّانِ
فَالزَّهْرُ يُسْكِرُنَا شَمًّا حِينًا وَيَفْتِنُنَا أَحْيَانِ
وَمَا عُرِفَتْ بِحِرْمَانٍ!

(تسدل الستارة العامة في ختام النشيد.)

الفصل الثاني

(يمثل هذا المنظر الفخم «معبد الشمس» وقد مر عهد طويل على وقوع حوادث الفصل الأول وأخذ الرومانيون يحاربون التدمريين بعد أن خافوا من امتداد نفوذهم وأوشكوا أن يشتبكوا معهم في معركة خطيرة حول أنطاكية. وهذا المشهد لصلاة كبرى في «معبد الشمس» استنجاذاً على الأعداء، وقد حضرت الملكة وكبار حاشيتها وسراة المدينة وذوو الحثيات المختلفة فيها نساء ورجالاً. وهذا المعبد أو الهيكل جامع لأروع النقوش الرمزية الدينية لعبادة الشمس، وقد وقف كبير الكهنة أمام المذبح وحوله أتباعه والمرتلون والمرتلون، وجلست الملكة وكبير وزرائها والفيلسوف لونجينوس وقائدها الأعظم، وجلس أعيان المملكة على الجانبين في صفين متقابلين، ويراعى إظهار رسم كبير مُذهَّب للشمس على صدر الحائط الخلفي نافذة منه الأشعة الأرجوانية كما يوضع موقد للبخور مضاء بالنور الأحمر بالقرب من المذبح.)

المرتلون والمرتلات:

وَحَيَاةُ النَّاسِ وَإِنْ ضَلُّوا	(الشَّمْسُ) حَيَاةُ الْيَّامِ
لِلخَلْقِ، يَدِينُ لَهَا (العَقْلُ)	وَمَلَأَ عَزِيزَ الْأَحْلَامِ
لَا شَيْءَ، وَحَاشَا أَنْ تَفْنَى	مَا (الْكُونُ) إِذَا (الشَّمْسُ) انْقَرَضَتْ
وَكَفَتْ حُسْنًا وَزَهَتْ حُسْنًا	خَلَقَتْ (دُنْيَا) وَحَبَّتْ (أُخْرَى)
فِي الْهَمِّ نَنَاشِدُهَا الْعَوْنَا	فِي الصَّفْوِ نَنَاجِيهَا أَمَلًا
مِنْهَا، وَنَرُدُّ لَهَا الدِّينَا	نَسْتَوْحِي الْحِكْمَةَ وَالْعَمَلَا

كبير الكهنة (دعاء):

نُبْصِرُ الْحَقَّ وَالصَّوَابَ الْحَكِيمَا	اُمْنَحِي النُّورَ وَالْهَدَايَةَ حَتَّى
رَبَّةَ الْكُونِ أَنْتِ أَيْتُهَا (الشَّمْسُ	وَانْشُرِي السَّلَامَ فَالْحُرُوبُ وَبَالٌ
تَنْشُرُ الْعُسْفَ وَالْخَرَابَ الْجَسِيمَا	أَنْتِ نَوْرُ الْأَنْوَارِ، أَنْتِ هُدًى الـ
إِصْلَاحٍ، نَدْعُوكِ أَنْ تَرُدِّي الْأَثِيمَا	وَأَنْصُرِي شَعْبَكَ الَّذِي عَاشَ بِالْإِخـ
لَا تَتْرَكِيهِ يَشْقَى غَرِيمَا	

المرتلات والمترتلون وجميع الحاضرين (صلاة عامة في ركوع وخشوع):

يَا شُعَاعَ الْخُلُودِ	يَا إِلَهَ الْحَيَاةِ	يَا إِلَهَ الضِّيَاءِ
مِنْ عَدُوٍّ لِدُودِ	أَلْهِمِينَا النِّجَاةَ	أَلْهِمِينَا الرَّجَاءَ
يَا حَيَاةَ الْجُنُودِ	لِلْحُمَاةِ الْكَمَاءِ	مَنْكَ سِرُّ الْبَقَاءِ
الرَّحِيمِ الْوُدُودِ	أَنْتِ أَنْتِ الْإِلَهَ	عِنْدَكَ الْاِلْتِجَاءُ

كبير الكهنة:

تُمْ بِخَيْرٍ بَرَعِمَ كُلِّ عَدُوٍّ	بُورَكْتَ هَذِهِ الصَّلَاةُ وَبُورَكْ
قُوَّةُ الشَّعْبِ مِنْ ضَلَالِ الْعَتُوِّ	قُوَّةُ الشَّعْبِ فِي الْيَقِينِ وَلَيْسَتْ
مِ، وَلَكِنَّهُ قَرِينُ النُّمُو	نَحْنُ شَعْبُ الشَّبَابِ مَا شَاخَ كَالْخَصْبِ
مِ وَنَبْقَى حَيَاتِنَا فِي سُمُو!	يَتَرَامَى فَنَرْتَقِي نَحْنُ بِالرَّغْ

(تنهض الملكة وينهض الجميع إثرها.)

الملكة:

الآن أَرْجُو خَلُوءَ بَرَجَالِ عَرْشِي لِلْمَشُورَةِ

(يخرج جميع الحاضرين بعد إبداء الاحترام للملكة، ويبقى معها كبير الكهنة والوزير الأعظم والقائد الأعظم والفيلسوف لونجينوس، وينشد الآخرون أثناء الخروج بانتظام النشيد الآتي.)

الخارجيات والخارجون من المعبد:

جَلَّ هَذَا الدُّعَاءُ وَالصَّلَاةُ الْوَفِيَّةُ لِلَّهِ الْمُنِيرُ مُسْتَعِزًّا
 إِنَّمَا الْإِحْتِمَاءُ لِلنَّفُوسِ الْأَبْيَّةِ فِي عُلَاهُ الْكَبِيرِ دَامَ جِزْرًا
 لِلنَّفُوسِ الْأَبْيَّةِ
 نَفْتَدِي بِالْحَيَاةِ (تَذْمَرُ) الْغَالِيَةِ نَفْتَدِي بِالْحَيَاةِ فِي تَفَانٍ
 لَنْ نَذِلَّ الْجِبَاهُ لِلْقُوَى الْعَاتِيَةِ لَنْ نَذِلَّ الْجِبَاهُ طَوْعَ جَانٍ
 لِلْقُوَى الْعَاتِيَةِ!

الملكة (جالسة وقد وقف تجاهها في احترام من بقي معها):

بَعْدَ الَّذِي حَدَّثْتَنِي فِيمَا مَضَى مَا الرَّأْيُ (بيلنيوس)؟^١ مَاذَا يُرْتَجَى؟
 وَالْجُنْدُ مُرْتَدُّ فَعُقْبَانَا الدُّجَى؟ مَا دَامَ (مارسيوس)^٢ يَبْغِي هَدْمَنَا
 مَا قُوَّةَ (الرُّومَانِ) لَهَوًا ... إِنَّهَا وَيلٌ ... فَهَلْ أَعَدَدْتَ مِنْهَا مَخْرَجًا
 وَالْعِزْمَ وَالْجَهْدَ الْمُضَاعَفَ وَالْحِجَى هَذَا أَوَّانُ لِلشَّجَاعَةِ كُلِّهَا
 إِنْ فَاتَ رَأْيُكَ أَوْ جِهَادُكَ لَمْ نَجِدْ إِنْ فَاتَ رَأْيُكَ أَوْ جِهَادُكَ لَمْ نَجِدْ

بيلنيوس (القائد الأعظم):

هَذَا وَلِيُّ الْعَهْدِ مَا سُورُ وَقَدْ حُمَّ الْقَضَاءُ
 وَعَدُونَا فِي زَحْفِهِ مَلَكُ الْمَسَالِكِ وَالْفَضَاءُ
 لَكُنَّنِي مَا زِلْتُ أَرُ جُو أَنْ يَحِلَّ بِهِ الْعَنَاءُ
 وَأَصُونَ مُلْكِكَ مِنْ فَنَاءِ ءِ وَالْبَلَاءُ مِنَ الْبَلَاءِ
 وَجَمِيعُ سُوْلِي أَنْ أُجَا بَ لَمَّا سَأَلْتُ مِنَ الرِّضَاءِ

^١ بيلنيوس القائد الأعظم لجيشها.

^٢ قائد الجيش الروماني المحارب للتدمريين.

الملكة:

أَنْتَ لِي عُدَّةٌ وَمَوْضِعُ إِكْبَا رِي فَأَهْلُ إِذَنْ لِكُلِّ رِضَائِي
أَنْتَ عَنَوَانُ قُوَّةِ الْجَيْشِ غَلَا بَا فَعِشْ سَيِّدَا كَبِيرَ الْمَضَاءِ

القائد الأعظم:

إِنَّ سُؤْلِي الْحَيَاةُ فِي شَرَفِ الْعَرْ شِ

الملكة (مقاطعة):

لَقَدْ حُزَّتْ كُلُّ فَخْرٍ لِعَرْشِي
فَاذْهَبِ الْآنَ لِلْوَعَى نَاصِرَ (الشَّمْسِ) سِ (فَتَحْمِي الْبِلَادَ مِنْ كُلِّ بَطْشِ)

القائد الأعظم (يركع ويقبل يدها ثم ينشد):

أَنْ الْوَدَاعُ إِذَنْ ... فَيَا تَوْدِيعِي كُنْ لِي عَلَى بُعْدِي أَبْرَ شَفِيعِ
هَذَا دَمِي سَيَرَاقُ فِي سَاحِ الْوَعَى شَرَفًا، فَعِيشِي تَاجَ كُلِّ رَفِيعِ
وَلَدَيْكَ أَعْوَانُ شُهُودٌ، كُلُّهُمْ وَافٍ لَذِكْرِ عَوَاطِفِي وَصَنِيعِي

(ينحني احترامًا للجميع ثم يخرج بعد الاستماع لنشيد التوديع الآتي.)

الجميع:

سِرْ لِلدَّفَاعِ عَنِ الْكِرَا مَةَ وَالْحَضَارَةِ وَالْمَفَاجِرِ
وَاحْفَظْ (لتدمر) مَجْدَهَا مِنْ ذَلِكَ الْعَادِي الْمُكَابِرِ
فَحِجَاكَ يَوْمَ الرَّوْعِ قَاهِرًا!

(يسمع هذا النشيد خارج المسرح.)

الحاشية (خارج المعبد):

هكذا هكذا	الجريء الشجاع	فلتئل ما تشاء	يا حليف الظفر
ولتعد في جلال!	ولتعد في جلال!		
لن يُصيب الأذى	الرئيس المطاع	الشريف الإباء	الحليف القدر
القديم المثل!	القديم المثل!	يا عظيم المأل!	

الفيلسوف لونجिनوس:

بإذنك مولاتي أرى خير نعمة
بداً (لمرندا) ...

كبير الكهنة (غاضباً):

... حسبك الآن لا تزد
وكم لك رأي رده الجلم فلنضع
ولا تك في هذي المشورة عاثراً
لنصحك حذاً، واترك النصح ساخراً!

الملكة:

أي ذنب جناه يا (ثاديوس)؟
و(مرندا) تحب طلعة (پيلنيو)
لما يستك الصديق في نصحه هـ
إنما الحب ما تعز النفوس
(س) حباً، كذاك (پيلنيوس)
ذا، ففيم الملام يا (ثاديوس)؟

الفيلسوف لونجينيوس:

حسبي شهادتك الكريمة هذه
أيلام من بدل المحبة ناصحاً
ما رمت إلا الود والتقدير
ويعد من نشر الخداع قديراً؟

كبير الكهنة:

الذَّنْبُ ذَنْبُ صَدِيقِي	ما الذَّنْبُ ذَنْبِي بِلَوْمٍ
أَدَى لَضِيقٍ وَضِيقٍ	فَكَمْ أَشَارَ بَرَأِي
... ..	وَحَسْبُنَا الْحَرْبُ هَذِي

الفيلسوف لونجينوس (متعجبًا عاتبًا):

ماذا؟ أهذا حقيقي؟	
وأنتَ دَوْمًا رَفِيقِي؟!	فِيمَ الْغُلُوِّ بَعْدُ
في النُّصْحِ، أَوْ في طَرِيقِي! ^٣	فَمَا نَصَحْتُ وَحِيدًا

الملكة (عاذلة ناصحة):

قَ عَلَى الْمُلْكِ مِنْ هُدَى (الفرقدين)	أَنْتُمَا (فَرْقَدَانِ) لِلْمُلْكِ فَلَيْبَ
شر (للشمس) نُورَهَا رَغْمَ بَيْنِ	ووزيرِي الْأَجَلِّ (كالقمر) النَّا
ء حَيَاةٍ وَقُوَّةٍ ثَمَ عَوْنِ	هكذا أنتمو الثلاثة أضوا
غالبٌ، وكونوا لِصَوْنِ	فدعوا مَسْلَكَ التَّنَائُدِ بَيْنَنَا خَصْمُنَا

كبير الكهنة:

فَمَا أَرَدْتُ الْإِسَاءَةَ	يَا رَبَّةَ التَّاجِ عَفْوًا
فَأَنْتِ أَصْلُ الْإِضَاءَةِ	وَأَلْفَ شُكْرِ لَشُكْرٍ

الوزير الأعظم:

عَمَا أَهَاجَكَ يَا مَنْ عُدَّهَا دِينًا	باسمِ المَلِيكَةِ قُلْ مَا شِئْتُ وَأَنْبِيْنَا
--	---

^٣ أو في خطتي.

كبير الكهنة:

بأمرِكَ الآن أُرَوِّي خَشِيَّتِي وَجَلَا
مَنْ قَائِدٍ مَّاكِرٍ بِالْخُبْثِ يُلْهِينَا!

الجميع (في دهشة):

ماذا تقول؟

كبير الكهنة:

... نَعَمْ! بِالْخُبْثِ يُلْهِينَا
وَقَدْ سَمِعْتُ لَهُ تَلْمِيحَ مُجْتَرِيٍّ
فَيُصْبِحُ الْمَلِكُ الْقَهَّارَ فِي وَطَنِ
وَيَتْرَكَ الْخَصَمَ غَلَابًا فَيُفْنِينَا
يَهْوَى مِنَ الْعَرْشِ حَظَّ الْمُرْتَجَى فِينَا
قَدْ صَانَ مُلْكَكَ عَهْدَ الْحُبِّ بَلْ دِينَا

الجميع (في تعجب):

ماذا تقول؟!

كبير الكهنة:

... سَيُبْدِي يَوْمَ حَاجَتِنَا
أُمًّا فَتَّاتِي فَلَنْ أَرْضَى مَحَبَّتَهَا
وَقَدْ تَحِينُ أَحَايِينُ يُهْدِدُنَا
إِلَيْهِ مَا كَانَ يَخْفِيهِ فَيُشْقِينَا ...
لَهُ وَقَدْ بَاتَ خَدَاعًا يُرَاضِينَا
بَحِيلَةِ الْخَائِنِ الْجَانِي فَيُرْدِينَا!

الملكة (متظاهرة بالدهشة):

حَيَّرْتَنِي أَيَّ حَيْرَةٍ!
هَلْ جُنَّ أَمْ بَاعَ مَجْدِي
أَمْ حَنَّ جَهْلًا لِأُصْلِهِ؟
بئسَ الْجَنِيْبُ الدَّخِيلُ
ماذا! أَيْنَشُدُ ضَيْرَهُ!
إِلَى عَدُوِّي الْأَدِّ؟
إِذْنُ فَحُكْمِي بِقَتْلِهِ!
إِذَا عَدَاهُ الْجَمِيلُ!

أَمَّا فُؤَادِي وَعَرْشِي فَمَلِكُ شَعْبِي وَنَعْشِي!
أَظِلُّ رَبَّةَ نَفْسِي حَتَّى يُكَفَّنَ حِسِّي!
وَيْلٌ لَهُ مِنْ خَوُونٍ وَمِنْ أَصِيلِ الْجُنُونِ
دَمِي فِدَاءٌ لِقَوْمِي وَلَنْ أَذَالَ بِيَوْمٍ!

الوزير الأعظم:

خَفَّفِي عَنْكَ! بَعْضَ هَذَا فَإِنِّي لَا أَرَى الْخَوْفَ هَكَذَا أَسَّ حِكْمَهُ
حَسْبُكَ الْيَوْمَ يَا مَلِيكَةً أَنَا حَوْلَكَ الْيَوْمَ: حَزْمُنَا حَزْمُ أُمِّهِ!

الفيلسوف لونجينوس:

وَأَنَا كَذَلِكَ لَنْ أُدِيءَ نَ إِلَى الْخِيَالِ وَالانزعاجِ
يَكْفِي التَّعَاوُنُ بَاحْتِرَا سِ فِي حِمَى عَرْشٍ وَتَاجِ
وَمِنَ الْمَلِيكَةِ قَدَوَةٌ لِلشَّعْبِ إِنَّ عَمَّ الْخَطَرِ
تُذَكِّي شَجَاعَتُهَا الْجَبَا نَ وَتُلْهِمُ الْجُهْدَ الْحَجَرَ!

(تنهض فيقف الحاضرون.)

الملكة:

إِذْنُ فَلَ تَيَاسُوا إِذْنُ فَقُولُوا مَعِي

(ينشدون جميعًا مع الملكة البيتين التاليتين.)

حَيَاتُنَا لِلوَعَى لِلْمَوْطِنِ الْمُوجِعِ!
هِيَهَاتُ أَنْ يَعْتَلِي الظَّالِمُ الْمُدَّعِي!

الفصل الثاني

الحاشية (يسمع هذا التردد في الخارج بينما الملكة ومن معها متجهون إلى باب المعبد للخروج):

حَيَاتُنَا لِلْوَعَى للموطنِ المَوْجِعِ!
هيهات أن يَعْتلي الظالمُ المدَّعي!

(ثم تسدل الستارة العامة فورًا.)

الفصل الثالث

المنظر الأول

حصن تدمر

(يمثل المنظر حصن تدمر قبيل الغروب في مشهد رائع والشمس باعثة بأشعتها الأرجوانية بين صفوف النخيل على الرمال الذهبية والحجارة التاريخية العتيقة، ويبدو رجال الحامية في مواضع متفرقة ومعهم سيوفهم وسهامهم ودروعهم، وتبدو المنجنقات في مواضع مختلفة من الحصن. وقد زارته الزبّاء على موعد من القائد الأعظم الذي جاء من ميدان القتال بحجة تقوية الدفاع، ولكنه جاء في الواقع ليساوم الزبّاء على التّزوج منه حتى يصبح ملك تدمر، وذلك ثمنًا لإنقاذ المملكة من خطر الرومانيين الزاحفين على تدمر بعد أن هزموا التدمريين أخيرًا في موقعة حمص، وبعد أن أخذوا يجتازون القفار والاستحكامات إلى العاصمة.)

الملكة:

وماذا؟ أَتَنْسَى أَنْتَ فَضْلَ رعايتي	وتخون عَرْشي في مقامٍ جَلَدٍ؟!
أَكْذا الشَّجَاعَةُ والشَّهَامَةُ والحِجى	أَكْذا تكون قِيادَةُ القُوّادِ؟!
أَعَدَدْتُ لِي وَطَنًا غريبًا عنكَ لم	تُخْدِمُهُ حين نَسيتَ حَقَّ بِلادِي؟!
ماذا تَرَكْتَ لَخاذلِي أوطانهم	جُبْنَا بيوم كَريهةٍ وتَنادِ؟!

القائد الأعظم:

ما بينَ أمْسٍ مَضَى وَيَوْمِ آتٍ
حَصَدْتُ مِائَاتِ النَّفُوسِ وَمَا وَنْتُ
وَأَنَا الَّذِي دَافَعْتُ عَنْكَ مَجَاهِدًا
أُحِبُّبْتُكَ الْحُبِّ الَّذِي لَا يَنْتَهِي
وَسَعَيْتُ خَلْفَ الْمُسْتَحِيلِ وَلَمْ أَنْمِ
أَجْزَاءَ مِثْلِي أَنْ يُعَيَّرَ هَكَذَا

الْحَرْبُ لَا تَعْنُو أَمَامَ حَيَاةٍ
وَلَسَوْفَ تُتْبِعُهَا بِحَصْدِ مِائَاتٍ
أُسْمَى وَأَكْرَمَ مِنْ دِفَاعِ كُمَاةٍ
بِرَعَايَةٍ أَوْ دَعْوَةٍ وَصَلَاةٍ
فِي هَوْلِ مَعْرَكَةٍ وَسِيلِ مَمَاتٍ
بِشَجَاعَةٍ وَصَلَابَةٍ وَثَبَاتٍ؟!

الملكة:

لَيْسَ هَذَا مِنْ دِفَاعٍ فَادَّكُرْ
كَيْفَ تَأْتِي كَجَبَانٍ لَمْ يَقْرُرْ
إِنَّمَا الْجُنْدِيُّ فِي سَاحِ الْقِتَالِ
لَيْسَ مَنْ يَفْخَرُ فِي وَقْتِ الْمَلَالِ
كَيْفَ تَرْجُو أَنْ تُحْيَا بِالْجَلَالِ
ثُمَّ تَأْتِي طَالِبًا مَنِي الْمُحَالِ
إِنَّ عَرْشِي مِلْكُ قَوْمِي وَحَدَهُم

مَا أَصَابَ الْجَيْشَ مِنْ بَعْدِ انْهْزَامٍ
لِحِظَةٍ فِي الْحَرْبِ مِنْ هَوْلِ الصَّدَامِ
يَبْذُلُ الرُّوحَ لِأَوْطَانٍ تُعَانِي
لَيْسَ مَنْ يَهْرُبُ جُبْنًا لِلْأَمَانِ
وَبِقَايَا الْجَيْشِ تُزَجَّى لِلْهَوَانِ؟!
حَاسِبًا أَنِّي أُضْحِي لَجَبَانٍ!
ثُمَّ نَفْسِي مِلْكُ نَفْسِي لَا الْحَسَامِ!

القائد الأعظم:

أَتَرْدِّينَ هَكَذَا سُؤْلِي الْحَقَّ
كُلُّ مَا قَدْ سَأَلْتُ أَنْ أَغْتَدِي إِلَيْكَ
تَتَنَاسِينَ سَاعَةَ الْخَطَرِ الدَّاءِ

وَتَنْسِينَ كُلَّ مَا قَدْ بَذَلْتُ؟
فَكْ ... وَالْعَدْلُ هَكَذَا مَا سَأَلْتُ!
هَمْ ... لَا تَذَكِّرِينَ مَا قَدْ كَفَلْتُ

الملكة:

بِرَغْمِي أَنَّكَ مَنْ يَنْفَعُ
فَهَلْ لَكَ مِنْ عَوْدَةٍ لِلْجَهَا

وَمَنْ يَدْفَعُ الْخَطْبَ أَوْ يَمْنَعُ!
دِ فَتُكْرِمُكَ الْعَيْنُ وَالْمَسْمَعُ

وتغدو أميرًا بحُبِّ النفوسِ وهل بعد حُبِّ الورى مَطْمَعُ؟!

القائد الأعظم:

نسيت حُبِّي فَخَلِّي وسامحيني وَعُودي
أَكَانَ هَذَا كَثِيرًا فَإِنْ رَضِيتِ فَإِنِي
عَذْلِي، ففِي الْعَذْلِ قَتْلِي! إلى الرُّضَى والتَّجْلِي
على وَفَائِي وَعَقْلِي؟! سأَجْعَلُ النَّصْرَ شُغْلِي

الملكة (غاضبة):

أَتَسَاوِمُ أَنْتَ عَلَى عَرْشِي فَاذْهَبْ إِنْ شِئْتَ وَلَا تَذْهَبْ
سَأُطِيلُ الْحَرْبَ بَلَا وَهَنْ وَأَقْوَدُ بِنَفْسِي جَيْشَ أَبِي
وتَعَاْفُ الْحَرْبَ بَلَا ثَمَنٍ؟! إِنْ خُنْتَ، فَكُلِّي لِلْوَطَنِ!
وَيْلًا لِلْبَاغِي الْمُمْتَحِنِ! لِلنَّصْرِ عَلَى رَغَمِ الزَّمَنِ

القائد الأعظم:

أَكْذَا تَغْضِيبِينَ؟!

الملكة:

... اذْهَبْ وَدَعْنِي لَسْتُ مَنْ تُشْتَرَى بِتَهْدِيدِ مَاكِزْ

القائد الأعظم (عائبًا محتجًا):

قد تَمَادَيْتِ رَبَّةَ النَّاجِ فِي اللُّؤْ وتَنَاسَيْتِ كُلَّ فَضْلِي وَجُهْدِي
م، وقد كَانَ كُلُّ لَوْمِكِ ظُلْمًا فعَلَى الْحَرْبِ أَنْ تُسْجَلَ حُكْمًا!

(ينحني القائد الأعظم احترامًا للملكة ثم يتركها في شبه غضب.)

الملكة:

أيها الجندُ! ...

(يقبل أمام الملكة من جوانب الحصن عدد وافر من الجند في زيهم الحربي.)

الجند:

إِنَّ أَمْرَكَ طَاعَهُ ... رَبَّةَ الْعَرْشِ وَالسَّيِّدَةِ وَالْمَنَاعَةَ!¹

الملكة:

مَنْ دَانَ مِنْكُمْ بِحَبِّي؟

الجند:

جَمِيعُنَا مَنْ يَدِينُ!

الملكة:

أَتَبْذُلُونَ لِنَصْرِي؟

الجند:

هِيَهَاتَ فِينَا الضَّعِيفُ!

(متحمسين.)

¹ المناعة: القوة والاعتزاز.

الفصل الثالث

جَمِيعُنَا مَنْ يُضْحِي فما يَعِزُّ الثَّمِينُ
فَأَنْتِ مُلْكُ وَكُنُزْ وَأَنْتِ تاجُ ودين!

الملكة (مشيرة إلى بعد خارج الحصن):

هذا العدوُّ أَتَى يُحَاصِرُ (تَدْمُرًا) من بعد ما اكْتَسَحَ المدائنَ والقُرَى!

الجند:

سَنُرِيكَ خَيْرَ دِمَائِنَا لِدِفَاعِنَا عَنْهَا بَلَا وَهَنٌ، وَلَنْ نَنْتَقَهَرَا!
وَإِذَا التَّجَانُّوا لِلْقِلَاعِ فَإِنَّا كَالْأُسْدِ جَائِمَةٌ لَتَقْتَحِمَ الذُّرَى!

الملكة (تشهر سيفها):

أَقْسِمُوا أَقْسِمُوا بِسَيْفِ الْبُطُولَةِ وانبذوا الخائنَ العديمَ الرجولة!

الجند (يشهرون سيوفهم ويوجهونها نحو سيف الملكة):

قَسَمًا بِسَنَّاكِ وَدَوْلَتِهِ والمجدِ وموطننا العالي
سَنَدَافِعُ عَنْكَ بَلَا وَهَنٍ كَالْجِنَّةِ قَبْلَ الْأَبْطَالِ
نَفْدِيكَ بِأَرْوَاحِ خُلُقَتِ لَتَصُونَ مُحْيَاكِ الْغَالِي
وَنَخْطُ بِأَسْيَافٍ كَرُمَتْ تَارِيخَ كَرِيمِ الْأَجْيَالِ
وَنَصُونَ لِأَحْفَادٍ عِبْرًا وَفَخَارًا يَتَلَوُهُ النَّالِي!

(تنزل الستارة الداخلية لفترة قصيرة استعدادًا للمنظر الثاني).

المنظر الثاني

(مشهد ريفي في الليل وشاطئ نهر الفرات في خلف المسرح، وأشعة القمر مرسلّة ما بين النخيل، وتألّق النجوم واضح في السماء، ويقع هذا المنظر بعد المنظر الأول بأسابيع قليلة، وقد تمكن الرومانيون بقيادة قائدهم مارسيوس وبفضل خيانة پيلينوس من اجتياز القفار والاستحكامات المنيعّة — بعد موقعة حمص — ومن محاصرة تدمر، ولكن بعد أن هرب ولي العهد — هبة الله — من الأسر والتحق بجيش العاصمة، وفي هذا المشهد تمثّل محاولة الزبّاء الهرب مع ولي العهد إلى ملك الفرس للالتجاء إليه والاستنجاد به على أعدائها، بعد أن كادت المدينة تسقط في أيدي الرومانيين، ثم استطاعة الرومانيين اللحاق بهما وأسرهما، وقد كان لمرندا الفضل الأول في محاولة تهريبهما بعد أن أيقنت خيانة پيلينوس لها في حبها ثم خيانتة للملكة وللشعب.)

الملكة (تظهر تحت النخيل في جانب المسرح ومعها من حاشيتها كبير الكهنة ثاديوس):

ما علينا الآن إلّا وَقَفّة تحت النخيل
في ارتقابٍ للرحيل!

الوزير الأعظم:

بالرغم منّا يا مليّـ كهُ أن تسيري لاغترابٍ
لكنّ لعلّ (الفرس) تنّ جدّنا على هذا المصابِ

كبير الكهنة:

هكذا حِكْمَةُ المقادير شاءتْ والذي كنْتُ خاشيًّا قد تَحَقَّقْ
وكفانا من الثّباتِ رجاءٌ لكِ والعُرشِ والولاءِ المُحَقَّقْ

الفيلسوف لونجينوس:

دَعَانَا مِنَ الْآلَامِ وَلِنَدْعُ بِالْهُدَى
نَجَاةً لَهَا تَكْفِي نَجَاةً لِمُلْكِنَا
فَتَكْشَفُ عَنْ أَوْطَانِنَا غَمَّةَ الْعِدَى
وَبِالْفَوْزِ فِي الْمَسْعَى لِسَاحِبَةِ التَّاجِ
مَتَى رَجَعْتُ فِي عَسْكَرِ بَيْنِ أَفْوَاجِ
كَمَا يَثَارُ الْإِصْبَاحُ مِنْ خَصْمِهِ الدَّاجِي!

مرندا:

أَمَّا أَنَا فَالْصَّفْحُ أَطْمَ
لَوْلَايَ (بِيلْنِيُوس) لَمْ
أَخْلَصْتُهُ حُبِّي فَمَا
وَقَضَى عَلَى أَمَلِ الْبَلَا
لُحْبُ مِنْكَ حَتَّى تَصْفَحِي
يَنْجَحْ وَلَمْ يَتَبَجَّحْ
أَبْقَى وَلَمَّا يَسْتَحِجِي
دِ وَقَادَهَا لِلْمَذْبَحِ!

الملكة:

مَا مَضَى وَلَّى وَحَسْبِي
أَنَا لَا أَمْضِي هُرُوبًا
غَيْرَ أَنَّ السَّعْيَ أَجْدَى
لَيْسَ لِي ذَنْبٌ بِهَذَا
أَنْ أُغِيثَ الْيَوْمَ شَعْبِي
رُبَّمَا أَمْضِي إِخْطَبُ
مَنْ سُكُونِ يَوْمٍ حَرْبٍ
إِنَّمَا الْإِخْلَاصُ ذَنْبِي

الوزير الأعظم:

سَوْفَ لَا يَنْسَاكَ شَعْبٌ لَنْ يَحِيدَ
لَا وَلَا أَنْ يَرْضَى حِطَّ الْعَبِيدِ
اقْصِدِي يَا كَوْكَبَ التَّاجِ الْعَزِيزِ
سَيِّدِ (الْفُرْسِ) فَهِيَهَاتِ يُجِيزُ
قَدْ غَدَا (الرُّومَانُ) أَشْبَاهَ الْجَرَادِ
وَاسْتَحَلُّوا كُلَّ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ
أَذْهَبِي بِالرَّغْمِ مِنَّا وَلْتَكُونِي
عَنْ وَلَائِهِ
فِي سَمَائِهِ
دُونَ لَوْنِهِ
نَشْرَ ضَائِعِهِ
فِي خَرَابِ
وَالْمَعْدَابِ
بَيْنَ أَهْلِ

نحن مَنْ يُؤَثِّرُ أَنْوَاعَ الْمَنُونِ قَبْلَ ذُلِّ

كبير الكهنة:

إِنَّمَا نحنُ وَحْدَةً أَنْتِ مِنْهَا مركزُ ثابتُ عزيزُ المقامِ
إِنْ تُسَيِّئِ الْأَيَّامَ دُرْنَا وَمَا زِلْ نَا نُنَاجِيكَ لَا رَضَى الْأَيَّامِ
وَالْحَوُونُ الَّذِي أَسَاءَ إِلَيْنَا سوفَ يلقي جزاءَه بالحُسامِ
نحنُ شعبُ أساسِ نهضته الصَّبِّ رُ، وبالصَّبْرِ يرتقي كلُّ سامِ
جُهِدْنَا أصلُه اليقينُ فما نَعْبُ بَأُ بالدَّهْرِ أَوْ أَذَى الظُّلَامِ!

الفيلسوف لونجينوس:

العُرُوشُ والأُمَمُ تُبَتِّنِي وَتَنهِيهِمْ
لَا تعيشُ خالدةً حينَ فاتها الشَّمَمُ
موطنُ لِنُصْرَتِهِ أَنْتِ لَيْسَ يَنْهَزُمُ
قدَ حفظتِ هِمَّتَهُ حينَ ضاعتِ الهِمَمُ

مرندا:

وَقَفْتُ عَلَيْكَ أَحْلَامِي وَقَلْبِي وكمَ عشقتكِ أحلامُ النِّسَاءِ
وَكُنْتُ أَسَاءْتُ فِي ظَنِّي بِحُبِّي فَأَلْهَمْتُ الْكَرِيمَ مِنَ الْعَزَاءِ
سَنَحْفَظُ ذَكَرَكَ الْبَاقِي وَنَحْيَا حَيَاةَ الْمُؤْمِنَاتِ عَلَى رَجَاءِ
وَنَرْتَقِبُ اقْتِرَابَ غَدٍ لِنَأْرٍ يُعِيدُ التَّاجَ فِي أَسْمَى بَهَاءِ

الملكة:

مَازَا جَرَى وَالْجُنْدُ لَمَّا يَحْضُرُوا أَتَرَى كُشِفْنَا أَمْ أَضِلَّ الْعَسْكَرُ

الوزير الأعظم:

هُمُ وَالْأَمِيرُ يَهْيِئُوا نَ الْقَارِبِينَ عَلَى نِظَامٍ
وَلَسَوْفَ يَأْتِي جَمْعُهُمْ فِي فَتْرَةٍ لِلْإِغْتِنَامِ

(يسمع صوت خيل على نغم موسيقى لفترة صغيرة.)

الملكة:

وَالآنَ قَبْلَ وَدَاعِكُمْ أَحْيِي هُنَا عَهْدِي بِأَنْ أَشْقَى وَلَا أُنْسَى الْمُنَى
وَأَذِيقْ مَنْ بَاعَ الْأَمَانَةَ عَابَثًا بِالْمَوْطِنِ الْغَالِي الشَّقَاوَةَ وَالْعَنَاءَ
أَوْدَعْتُكُمْ أَهْلِي وَخَيْرَ عَوَاطِفِي وَأُبَيِّتُ أَنْ أَجْنِي عَلَى وَطْنِي أَنَا
حَاشَا لِي التَّسْلِيمُ أَوْ هَرَبٌ بِهِ عَارٌ، وَلَكِنِّي رَحَلْتُ عَنْ الدُّنْيَا
وَتَرَكْتُ شَعْبًا مُؤْمِنًا بِرِجَاحَتِي سَلَّ السِّيُوفَ الْهَاجِرَاتِ الْأَجْفُنَا
فَإِذَا ظَفَرْتُ مَلَكْتُ كُلَّ عَظِيمَةٍ وَإِذَا فَشَلْتُ فَمَا حُرْمْتُ مِنَ السَّنَا
وَالشَّعْبُ لَا يَهْوِي شَقِيًّا بَيْنَمَا التَّاجُ لَا يَنْسَى الْكَرَامَةَ دَيْدِنَا
فَزِنُوا مَوَاقِفَكُمْ وَكُونُوا قُدُورَةً لِلنَّاسِ ... إِنَّ النَّاسَ قُدُورُهُمْ بِنَا
يَا وَيْلَ شَعْبٍ عَاشَ وَهُوَ مُضَلَّلٌ بِالقَائِدِينَ فَمَا تَقَدَّمَ مُؤْمِنَا
نُورُ الرَّجَاءِ بِكُمْ فَلَا تَتَهَاوَنُوا أَوْ تَحْسَبُوا حُكْمَ الْمَمَالِكِ هِينًا!

الجميع:

اطْمِئْنِي يَا مَلِيكَةً! اطمِئْنِي اطمِئْنِي!

عساكر الرومان (تسمع عن بعد أصواتهم ثم تقترب تدريجياً وقد عرفوا هرب
الملكة وولي عهدها، فهبوا لمطاردتها ومن معها، ويقودهم قائدها الخائن پيلنيوس):

قُفُوا! قُفُوا! لَا تُسْرِفُوا!

أَوَّلَى بِكُمْ أَنْ تُشْرِفُوا^٢
عَنْ بَحْثِنَا لَنْ تَخْتَفُوا!

الملكة (في ثبات):

حَكَمَ الْقَضَاءُ وَلَا مَرَدَّ لِحُكْمِهِ لَكِنَّ لِي أَمَلًا يَعِيشُ كَبِيرًا
أَمَلِي بِشَعْبِي ...

حاشية الملكة (في اضطراب):

... واجب أن تختفي

الملكة (في ثبات وأنفة):

...
أَنَا لَا أَهَابُ وَلَنْ أَكُونَ أُسِيرَةً كَلَّا! فَقَدَرِي مَا يَزَالُ قَدِيرًا
هَاتِي الصَّوَاعِقَ يَا سَمَاءُ فَإِنِّي لِلْجُبْنِ ... بَلْ أُنْزِلُ الْغَشُومَ^٣ أُسِيرًا
أَهْلُ لِقَلْبٍ لَنْ يُرَاعَ صَغِيرًا!

(يدخل عدد كبير مسرع من الجند الروماني بقيادة قائدها الخائن پيلنيوس
ويلتفون في دائرة واسعة حول الملكة ومن معها إلا من جهة النظارة.)

عساكر الرومان:

سَلِّمُوا سَيُوفَكُمْ! سَلِّمُوا سَيُوفَكُمْ!

^٢ أَنْ تَطْلُوا وَتَظْهَرُوا.

^٣ الْغَشُومُ: الْغَاصِبُ الظَّالِمُ.

حاشية الملكة (وقد شهروا السيوف وحاولوا التصدر دفاعاً عن الملكة ومرندا):

تَحْيَا (تَدْمُرُ)! تَحْيَا الْمَلِكَةُ!

الملكة (في غضب واشمئزاز رامية نعلها في وجه پيلنيوس قائدھا الخائن):

أهذا أنتَ يا خائنٌ؟!

(فتسدل الستار العامة فوراً).

الفصل الرابع

(مشهد جانب ساحة النصر الكبرى بمدينة رومة شائقة بعمدها وبنياتها الرائعة، وقد ازدحم أعيان الشعب في المكان المعد لاستقبال الإمبراطور (أورليان) في عربته ماشية أمامها الملكة الأسيرة.)

الشعب (أصوات مترددة خلف المسرح من بعد وقرب):

عاشت (رُومَة)! عاشت (رُومَة)!

(ثم يمر عدد منه رجالاً ونساء في مرح ويرقص الجميع على قطعة مطربة تعزفها الأركسترا نحو خمس دقائق، ثم يسرون في طريقهم فيتركون المسرح من الجانب الآخر.)

(الماثلون أمام النظارة في هذا المشهد):

رُومَة! اغتلي	رُومَة! اغتلي
وافرّجي بما	وافرّجي بما
نصّرنا عدا	نصّرنا عدا
زان صيته	زان صيته
وبدا سنا	وبدا سنا
رُومَة! اغتلي	رُومَة! اغتلي

الجند (وتسمع أصواتهم خارج المسرح وهم مقبلون في ركب ينشدون هذا النشيد):

احكمي يا (رُومَةُ) حُكْمَ الْعُلَى وأنشري الذكرَ عزيزًا في المَلَا
والبُثي للمعجزات مَوْئِلًا وافتحي الدُّنيا وعِيشي مَثَلًا
للحياةِ والمَعالي والفخارِ
للزَّعامَةِ! للحضارَةِ!

* * *

أقبلي اليومَ تَحِيَّاتِ الْجُنُودِ وامنحهم نُورَ مَرَاكِ الْوَدُودِ
قد أعادوا بالوعَى حَقَّ الْجُدُودِ وأدالُوا كُلَّ مَفْتُونٍ حَسُودِ
بالثُّبَاتِ والفِعَالِ وانتصارِ
للكرامَةِ! للجَدَارَةِ!

(يدخل ركب الإمبراطور وفي مقدمته طائفة من الجند ثم القواد وعلى رؤوسهم الغار، وبينهم قائد تدمر الخائن بيلنيوس، ثم الملكة الزباء أسيرة وعليها سلاسل الذهب والجواهر، ماشية أمام عربة الإمبراطور، وبجوارها حارسان يسندانها حيث يكاد يغمى عليها من التأثر بالهوان، ثم عربة الإمبراطور يجرها الجند ويحيطون بها، وتقف العربة بعد الظهور على المسرح.)

الإمبراطور (أورليان) (يبدى إشارة التحية الرومانية فيحييه الجميع باحترام كذلك ويخاطب أشراف رومة):

فَتَحْنَا (تَدْمُرَ) الْفَتْحَ الْعَظِيمَا وَأَسَّسْنَا بِهَا حُكْمًا حَكِيمَا
وهذا عَرْشُهَا يَهْوَى عَدِيمَا فحيُّوا جُنْدَكُمْ ... لا شكَّ فيمَا
حَبُونَا مِنْ عَظِيمِ الْإِنتِصَارِ!

الأشراف:

ألا يا أيها الْمَلِكُ الْعَظِيمُ تَقَبَّلْ قَبْلَهُمْ حُبًّا يُقِيمُ
فمنك تدفَّقَ الْفَضْلُ الْعَمِيمُ ومنك الْعَزْمُ والرَّأيُ السَّليمُ

فَعِشْ واسْلَمْ (لِرُومَةَ) فِي ازدهار!
وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْأَجْنَادُ أَنْتُمْ رَجَاءُ الشَّعْبِ، فَلْيُكْرِمْهُ مِنْكُمْ
وَفَاءٌ لَنْ يُغَيِّبَ قَطُّ عَنْكُمْ وَأَهْلًا بِالْبَسَالَةِ يَوْمَ صُنْتُمْ
لَنَا عَلَمًا وَلَمْ تَقِفُوا لِعَارٍ!

الجنـد:

شَكَرْنَا فَخَرَكُمُ هَذَا بِفَخْرٍ فنحن حُماةُ موطننا الأعزِّ
نَسِيرُ لِنَصْرِهِ فِي كُلِّ مَضْرٍ فمن نَصْرٍ له نمضي لنصر
ونرجعُ بين أضواءِ النهار!

الشعب (أصوات مترددة خلف المسرح عن بعد وقرب):

تَحْيَا (رُومَةُ) تَحْيَا (رُومَةُ)

حسان الرومان (تدخل ثلاث حسان رومانيات حاملات باقات الزهر من الشعب
إلى الإمبراطور، وينشدن ثم يرقصن بعد ذلك على نشيد الجمع):

قد بُعثنا بالتَّحَايَا ملءَ باقاتٍ نَدِيَّةٍ
فاقبلِ الحُبَّ المُوَافِي يا مَلِيكًا لِلرَّعِيَّةِ
واغْتَبِطْ بَيْنَ التَّهَانِي والأَنَاشِيدِ الهَنِيَّةِ
إِنَّمَا قَدْ حُزَّتْ نَصْرًا هَزَّ أَعْلَامَ الْبَرِيَّةِ
كَمْ رَقَصْنَا وَشَرَبْنَا بالكُؤُوسِ الذَّهَبِيَّةِ
فَلَنَدُمُ لِلنَّصْرِ رَمَزًا ولتَعِشْ لِلْمَدْنِيَّةِ!

الإمبراطور (متناولاً الباقات وواضعها في عربته ومقبلًا رؤوس تلك الحسان):

أَهْلًا بِبَاقَاتِ شَعْبِي وبِالتَّحَايَا الْجَمِيلَةِ!
نَبِيلَةٌ فِي شَعُورٍ وبِالثَّغُورِ النَّبِيلَةِ!

ارْقُصْنِ يَا فَاتِنَاتِ رَقْصَ الْأَمَانِي الْجَلِيلَةِ!

الجميع (ينشد الرومانيون هذا النشيد لإطراب الإمبراطور بينما ترقص الحسان):

يا (رُومَةُ) اسْتَمِعِي الْأَلْحَانَ فِي حُبِّ شَعْبِكَ مَفْتُونًا
بَحْفَظِ عَهْدِكَ!
إِنَّا وَهَبْنَاكَ الْوَجْدَانَ فَمَا وَهَبْنَا مَغْبُورًا
بِفَضْلِ قَصْدِكَ!
تَبْقَيْنَ أَنْتِ مَدَى الْأَزْمَانِ فَاَلْمَجْدُ يَبْقَى مَرْهُونًا
بِمِثْلِ جُهِدِكَ!
مَا عَاشَ شَعْبٌ بَعْدَ تَوَانٍ بَلْ صَارَ مَيِّتًا مَدْفُونًا
عِيشِي لِمَجْدِكَ!

(ثم تحيي الحسان الإمبراطور باحترام وتغادرن المسرح).

الإمبراطور (مخاطبًا الزباء وقد تماكنت نفسها):

وَالْآنَ يَا مَنْ جَنَتْ ذُلًّا بِمَا صَنَعْتُ مَاذَا اكْتَسَبْتَ بِهَذَا الذَّلَّ أَلْوَانَا؟
ضَيَّعْتَ مُلْكًا كَمَا ضَيَّعْتَ سَابِقَةً مِنَ الْمَوَدَّةِ قَدْ رَاعَتْكَ أَزْمَانَا

الزباء:

أَنْتِ أَخْطَأْتَ عِنْدَ ظَنِّكَ هَذَا إِنَّ مِثْلِي تَجِلُّ عَنْ أَنْ تُذَلَّ
لِي جِسْمٌ أَسِيرٌ رُوحِي، وَرُوحِي دَائِمًا تَسْكُنُ الْمَكَانَ الْأَجَلَّ!

(يظهر الحاضرون دهشة لكبريائها).

الإمبراطور:

أَتَظَلِّينَ فِي الْغُرُورِ؟ إِيْمَا؟!

الزبَاء (في تأثر تنشد دفاعها):

إِنْ كُنْتُ قَدْ أُوْهِمْتُ ذَاكَ جَزَائِي فَلَقَدْ جَهِلْتَ الْعَدْلَ دُونَ مِرَاءِ!
أَنَا مَنْ حَفَظْتُ لَكَ الْوِدَادَ فَمَا دَهَى ذَاكَ الْوِدَادَ وَكُنْتُ رَمَزَ إِخَائِي؟
سَائِلُ شُعُورِكَ ثُمَّ سَائِلُ خَائِنًا كَمْ ظَلَّ يَعْمَلُ فِي سَبِيلِ عَدَائِ!

(مشيرةً إلى قائدها الخائن بيلنيوس بينما هو في حيرة واضطراب.)

كَمْ حَضَّنِي وَدَعَا لثُورَةٍ غَاشِمٍ وَحُرُوبٍ أَهْوَاءٍ صَبَاحٍ مَسَاءِ
فَنَهَرْتُهُ فَازْدَادَ غَيًّا، عَامِلًا لِلْحَرْبِ ثُمَّ الْفِتْنَةِ الشَّعْوَاءِ
لَوْلَاهُ مَا عَرَفَ التَّبَاغُضَ مَوْضِعًا مِنَّا وَلَا بِتَّنَا أَمَامَ بِلَاءِ
إِنْ كَانَ صَاحِبَكُم فَلَيْسَ لَصَحْبَةٍ مَا حُبٍّ (رُومَةَ) عِنْدَهُ بِجَزَائِ
بَلْ رَغْبَةً فِي الْإِنْتِقَامِ لِأَنْتَنِي لَمْ أَرْضَهُ زَوْجًا فَخَانَ نِدَائِي
مَنْ كَانَ يَنْقُضُ هَكَذَا عَهْدَ الْعُلَى أَوَّلَى بِهِ مَوْتُ الْخَبِيثِ الدَّاءِ
أَيْنَالُ (أُورَلِيَان) مَنِّي هَكَذَا مِتَنَاسِيًا وَدِّيَ وَطُولَ وَفَائِي؟!
وَيَفُوتُهُ ضَرْبُ الْخَوْنِ الْمَعْتَدِي بِالسَّيْفِ، وَهُوَ مَخَادَعُ وَمُرَائِي
مَنْ خَانَ أُمَّتَهُ فَلَيْسَ لِمِثْلِهِ شَرَفٌ وَلَا حَقٌّ لَدَى الْأَعْدَاءِ!

الإمبراطور (غاضبًا):

أَصْحِيحُ مَا قُلْتِهِ عَنْهُ؟ ... إِنِّي لَمْ أَكُنْ مُخْطِئًا إِذْنُ عِنْدَ ظَنِّي
أَخْرِجُوهُ! ... أَجَلْ! ... فَلَسْتُ بِرَاضٍ عَنْ جَبَانٍ مَخَادَعٍ شَاءَ غَبْنِي

(يقبض عليه جنديان ويخرجانه من بين القواد وهو في اضطراب والقواد يتهايمسون في دهشة.)

الجند:

قُلْ دِفَاعَكَ قُلْ دِفَاعَكَ

القائد بيلنيوس (في وجل محتجًا):

ماذا؟! أليس تحايّلي ومحبّتي
سيفي تقدّم سيفَ كلِّ مَجَنّدٍ
هل كان يُغني جيشها بمآزقٍ
— برّا (برومة) — سرّ كلِّ نَاجِها؟!
منها، ورأيي كان رُشدَ سلاحها!
لولاّي ما خضعتُ إلى مُجَنّاكِها؟!

الجند وقوادهم:

جَهْلًا تَمَنُّ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَبْنَاءُ (رُومَه)
الوارثون الشّجاعه
إِنْ طِبَّتْ نَفْسًا وَعَيْنًا فَأَنْتِ أَصْلُ الْخُصُومَه
وداءٌ مُلْكٍ أَضَاعَه

الإمبراطور (غاضبًا):

أَنْتِ يَا مَنْ أَسَاءَ عَمْدًا لَتَاكِه
سَوْفَ نَجْزِيكَ بِالنُّضَارِ وَلَكِنْ
نَحْنُ أَشْرَافُ هَذِهِ الْأَرْضِ نَأْبَى
كُلُّ نَفْعٍ بِذِلَّتِهِ لَيْسَ نَفْعًا
وَعَرَفْنَا الْحُرُوبَ مِنْ إِنْتَاجِ
ذَائِبًا شَارِبًا كِفَاءً احتِياجِه¹
عِزَّةً لِلخُوءِونِ رَغَمَ احتِياجِه
يَا خُوءُونًا فَخَارُهُ فِي اعْوَاجِ

(يجره بعض الجند إلى خارج المسرح).

القائد بيلنيوس (مستغيثًا):

... .. يا مليكي!

¹ أي: شاربًا من النضار الذائب ما يساوي احتياجه.

الإمبراطور:

... خَسِئْتُ! لَا تُرْجِعُوهُ
... مثلَ هذا الذي تَدَنِّسُ فُوهُ
... هَدَّ مُلْكًا وَخَانَ عَرْشًا وَأَوْدَى
... بنفوسٍ مِنَّا وَمِنْهَا ذَوُوهُ!

(يذهب به حراسه.)

القائد بيلينيوس (يسمع صوته خارج المسرح متضائلًا):

خَانَنِي الدَّهْرُ ... وَمَنْ قَدْ ظَنَّنَهُ
بِئْسَتِ الدُّنْيَا الَّتِي كَمْ خَادَعْتُ
خَائِنًا مِنْ بَعْدِ ذَاكَ الْإِنتِصَارِ؟!
ثُمَّ جَازَتْ مَنْ يُجَارِيهَا بِنَارٍ

الزباء (متأثرة شاكرة):

ثَأَرْتُ لِعِزَّتِي إِلَّا بِقَايَا
وَلَسْتُ أَهَابُ مَوْتِي بَعْدَ هَذَا
وَمَا ذُلُّ الْمُلُوكِ بِهِذِمَ مَلِكٍ
كَشَفْتُ قِنَاعَ مَنْ أَذْكَى حُرُوبًا
فَصُنْتُ كِرَامَتِي وَحَمَيْتُ عَرْضِي
إِذَا النَّفْسُ الْعَزِيزَةُ لَمْ تُسَخَّرْ
وَمَا هَذَا السَّلَاسِلُ رَمَزُ ذُلٍّ
وَلَكِنْ قَدْ قَضَيْتَ عَلَى جَوَايَا
فَبَعْدَ الثَّأْرِ فِي مَوْتِي رِضَايَا!
وَلَكِنْ كُلَّمَا صَارُوا ضَحَايَا!
لِنَكْبَتِنَا وَأَوْرَثْنَا الرِّزَايَا
فَلَمْ أَبْكِ الْجَلَالَ وَلَا هَوَايَا
فَمَا تَخْشَى الْوَبَالَ وَلَا الْمَنَايَا!
إِذَا كَانَتْ تُكْرِمُنِي السَّجَايَا!

الإمبراطور:

ارفعوا هذه السلاسل عنها ولتؤدوا عظيم التَّجِية

(يفعل حراسها ذلك وينحني لها الجميع احترامًا.)

الزَّبَاءُ:

أَيُّ شُكْرِ إِلَيْكَ أَسْدِي فَيُوفِي صِدْقَ حَسِّي بِذَلِكَ الْمَعْرُوفِ

الإمبراطور:

اجْلِسِي الْآنَ جَانِبِي رَمَزَ عَرْشِ مِنْ جَلَالِ النُّهَى وَمِنْ عَبَقَرِيَّةِ

(تقترب الزباء منه فيضع إكليل الغار الذي أمامه على رأسها ثم يساعدها على الجلوس بجانبه في العربة الملكية.)

وَالْبَسِي الْغَارَ أَنْتِ فِي الْأَسْرِ أَوْلَى	بِالْجَلَالِ الَّذِي يَشُوقُ الْبَرِيَّةَ
نَفْسُكَ الْحُرَّةَ الْعَظِيمَةَ دَوْمًا	تَقْهَرُ الدُّلَّ وَالنَّفُوسَ الدَّنِيَّةَ
بَعْدَ صَفْحِي عَنْ الَّذِي قَدْ تَوَلَّى	مِنْ حُرُوبٍ وَمِنْ مُصَابِ الرِّعْيَةِ
لَيْسَ عِنْدِي سِوَى التَّجَلَّةِ تُهْدَى	لِلَّتِي أَنْتِ مِنْ صِفَاتِ سَنِيَّةِ
سَتَعِيشِينَ فِي ضِيَاةٍ مُلْكِي	بَيْنَ أَوْلَادِكَ الْحَيَاةِ الرِّضِيِّةِ
سَتَعِيشِينَ فِي عُلَى قَصْرِ (تَيْبُو)	(رَ) حَيَاةً عَزِيزَةً مَلَكِيَّةَ
لَسْتُ مَنْ تُنْكِرُ الْوَفَاءَ لِمَوْطِنِ	كَ الثَّانِي فِدُومِي لَهُ بِصَدَقٍ وَفِيَّةِ!

الزَّبَاءُ (تصحبها أصوات بقية الحاضرين وتنشد شاكراً بينما تستأنف العربة الملكية سيرها ببطء وقد أقبل عدد وافر من الشعب رجالاً ونساءً في رقص وطرب):

اضْحَكِي يَا سَمَاءَ	ابْسَمِي يَا أَمَانِي	لَاعْتِدَالِ الزَّمَانِ
قَدْ مَضَى كَالْهَبَاءِ	هَمُّ شَاقٍ وَعَانِ	فَارْقَصِي فِي تَهَانِ
وَلْيَدُمُ فِي عِلَاءَ	فِي رِضَى فِي أَمَانِ	دُونَ وَاشٍ وَجَانِ
الْعَظِيمُ الْمَضَاءُ	رَبُّ هَذَا الْجَنَانِ	وَالْجَنَانِ الْحَسَانِ
فَلْتَعِشْ يَا مَلِيكَ	وَلْتَفُزْ يَا مَلِيكَ	

(تُسد الستار العامة فوراً.)

